ثنائية الخاصة والعامة في المجتمع العربي
-قراءة في أدبيات العصر الإسلامي الوسيط-

أ. دلال لواتي
جامعة الجزائر 2

الملخص:

تقدم هذه الدراسة قراءة في ثنائية الخاصة والعامة في المجتمع العربي من خلال أدبيات العصر الإسلامي الوسيط، وذلك من خلال ثلاث مستويات أساسية عالج المستوى الأول تاريخية الخاصة والعامة بداية بالعصر النبوي والخلافة الراشدة ومرورا بالعصر الأموي وانتهاء بالعصر العباسي، أما المستوى الثاني فقد عالج معايير التصنيف الطبقي في أدبيات العصر الوسيط من خلال جدولة للهرمية التراتبية للمجتمع الإسلامي المتمثلة في طبقة الخاصة التي حددت بالمعيار السياسي وجاه السلطة، وطبقة الأوساط المحددة بالمعيار الاقتصادي (جاه المال وجاه العلم)، وما عدا هاتين الطبقتين فهم عامة مسلوبة السياسة والمال والعلم، أما المستوى الثالث فقد عالج الهرمية التراتبية المعرفية واعتمدت في تحديد ثنائية الخاصة والعامة بناء على موقعها في منظومة الفكر الفلسفي الصوفي الأصولي.

Common people and the Elite in the Arab Society
A Reading in the Literature of the Islamic Middle Age

Abstract

This study presents a reading in the dichotomy of the common people and the elite in the Arab society through the literature of the Islamic middle age via three principal levels:

The first level examined the history of the common people and the elite starting from the prophetic era, the rightful succession era, the Umayyad era and the Abbasid era. The second level examined the criteria of categorization in the literature of the middle age though tabling the pyramidal hierarchy of the Islamic society represented by the elite defined by the political criterion and the strength of power, the middle class defined by the economic criterion (power of money and knowledge), and the common class which is not defined by politics, money or knowledge. The third level examined the knowledge pyramidal hierarchy and depended for the definition of the dichotomy of the common people and the elite on the Sufi philosophical thinking.

لقد سُئِل أبو عثمان بن بحر الجاحظ "هل على الناس أن يتخذوا إماما وأن يقيموا خليفة؟"[1] أجاب "إن قولكم الناس يحتمل الخاصة والعامة..."، وهو ما يعني أن المجتمع الإسلامي قد ظهر بثنائية الخاصة والعامة ترجع إلى صدر الإسلام، يشهد على ذلك الأثر النبوي الكريم الفعلي منه والقولي. فالرسول صلى الله عليه وسلم "كان يجعل وقت العامة بعد وقت الخاصة"[2]، "جمع الرسول -صلى الله عليه وسلم- قريشا فخصّ وعمّ"[3]، كما أثر عنه عليه الصلاة والسلام قوله: "إن الله لا يعذّب العامة بذنب الخاصة"[4]، وقوله: "وتقبلون على أمر خاصتكم وتدرون أمر عامتكم"[5].

هذه نصوص منتخبة من المأثور النبوي أثبتت على سبيل التمثيل لا الحصر لفهم نقطتين مهمتين، أما الأولى فهو قدم استعمال الزوج (خاصة/عامة) في التراث العربي[6] الإسلامي على خلاف من ربطوا ظهورها بالفترة العباسية من خلال نص الجاحظ[7] "... وعنهم أخذنا ترتيب الخاصة والعامة". ويقصد بذلك الفرس الذين رسخوا معنى الترتيب الذي تميز به العصر العباسي عن الفترات المتقدمة عنه مما هيّأ لهؤلاء الجزم بأن الكلمتين من الموروث الفارسي.

1- الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر، ت255هـ/868م): الرسائل السياسية، تقديم وشرح أبو مسلم علي، ط1، دار مكتبة الهلال، بيروت، د ت، ص307.

2- ابن حنبل (أبو عبد الله أحمد بن محمد، ت241هـ/855م): المسند، دار الفكر بيروت، د ت، ج4 ص192.

3- مسلم (أبو الحسين مسلم بن الحجاج، ت261هـ/874م): المسند الصحيح المختصر من السنن بنقل العدل عن العدل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كتاب الإيمان، ج1 ص133.

4- ابن حنبل، المصدر السابق، ج4 ص192.

5- السجستاني (أبو داود سليمان بن الأشعب، ت275هـ/888م): سنن أبي داود، كتاب الملاحم، 124/4.

6- ف .ف ناووس فكس، مسألة "الخاصة والعامة " والمفهوم التقليدي لـ "النخبة" و"الجمهور" في الإسلام، الإسلام في تاريخ شعوب الشرق، نشر ضمن أكاديمية "العلوم في الاتحاد السوفياتي، ترجمة محمد هلال علي مهدي، دار الفارابي، بيروت 1986م، ص48.

7- التاج في أخلاق الملوك، تحقيق باشا أحمد زكي، ط1، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1914م، ص23؛ التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، تحقيق أمين أحمد وزين أحمد، منشورات دار الحياة، بيروت، د ت، ج2 ص212.

أما النقطة الثانية فهو ما يحدثه هذان المفهومان من وقع على مرجعية الدارس وهو يحاول أن يستحضر الخصوصية التي امتاز بها واقع المجتمع الإسلامي في بداية تكونه، فخاصة وعامة يعني انقسام الناس إلى طبقتين أساسيتين هما: طبقة الخاصة وطبقة العامة.

والنظر إلى الكيان الاجتماعي بهذا التقابل أو التضاد بين طرفي الزوج يجعلنا وجها لوجه أمام كلمتي "انقسام" و"تراتب" ما معنى المساواة الحاضرة بكل ضخامتها في نصوص القرآن الكريم ومأثور السنة النبوية؟ ما معنى الانقسام والتراتب وهذا التواجد للثنائي خاصة/عامة، ما دامت المساواة بين الناس هي القاعدة الأساسية التي نشأ عليها المجتمع الإسلامي؟

من جهة ثانية "مقابلة" هل من العدل أن تكون هناك مساواة والتراتب فضيلة من فضائل المجتمع الصالح؟ "لأن المدن الجاهلة لا مراتب فيها ولا نظام، والنظام سنة من سنن الكون"[1] وأن "الناس بخير ما تباينوا، فإذا تساووا هلكوا"[2].

إن التقاء هذه التساؤلات المتناقضة أمر لا بد منه، لأن مقابلة النص الديني بالواقع التاريخي يحدث خلطا منهجيا ومعرفيا بين الدين والواقع المتطور، فلكون الإسلام يدعو إلى مجتمع الأخوة الموحد، والخليفة الحاكم يمثل السلطة الإلهية في دار الإسلام، وكافة القوى كانت تستند في أيديولوجيتها على الدين، تواتر -خطأ- وبمرور الزمن منظور مثالي غيبي لدى الكثير من الدارسين المسلمين، صوروا في إطاره حركة المجتمع كما يجب أن يكون لا كما هو كائن بالفعل[1].

1- الفارابي(أبو نصر محمد بن محمد، ت339هـ/950م): آراء أهل المدينة الفاضلة، تحقيق نادر آلبير نصر، ط1، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1959م، ص128.

2- ابن عبد ربه (أبو عمر أحمد بن محمد، ت328هـ/940م): كتاب العقد الفريد، منشورات دار الكتاب العربي، بيروت، 1982م، ج3 ص33

1- محمود إسماعيل، سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1980م، ج1 ص100.

أولا/ تاريخية الخاصة والعامة في المجتمع العربي الإسلامي

1 – العصر النبوي والراشدي

إن واقع المجتمع الإسلامي في بداية تشكله سواء في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم (المكية أم المدنية)، وفي زمن الخلفاء الراشدين الذين واصلوا ووسعوا مجال الدعوة اقتداء بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ولو بنسب متفاوتة وأشكال مختلفة. فالمرحلة كانت مرحلة الفتوحات، وكانت الحاجة إلى القوة الأدبية والمادية للغزو والانتشار هي الصورة الواضحة للفترة، فكان من الطبيعي أن يكون الصحابة والتابعون هم القادة والأمراء، وتكون الرعية هم الجند، فقد ورد حديث الرسول صلى الله عليه وسلم "الدين النصيحة قلنا لمن؟ قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامّتهم"[1]؛ فهذا الحديث يكشف بوضوح أكثر من غيره عن مدلول هذا الترتيب:

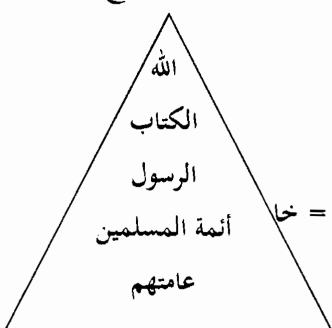
الله

الكتاب

الرسول

أئمة المسلمين = خا

عامتهم



هم الصحابة والتابعون = القادة الأمراء

ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم جعل لفظ العامة جامعا لأبناء المجتمع غير أولي الأمر[2]، وأولي الأمر في البداية هم الأمراء والقادة الذين سيصبحون فيما بعد أهل الحل والعقد[3] بالمفهوم الواسع وبالتالي كانوا خاصة وكانت الرعية عامة.

1- صحيح مسلم، كتاب الإيمان، ج1 ص53.

2- "أولوا الأمر المأمور بطاعتهم، هم الأمراء والعلماء لأن الأمر منهم والحكم إليهم والعلماء يجب العمل بفتواهم ..."، أنظر: ابن العربي (أبو بكر محمد بن عبد الله المعافري، ت543هـ/1148م): أحكام القرآن، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، 1987م، ج1 ص451.

3- الماوردي (أبو الحسن علي بن محمد، ت450هـ/1058): الأحكام السلطانية، تحقيق عبد الرحمن عميرة، دار الاعتصام، القاهرة، 1995م، ج1 ص63-65.

إن هذه الهرمية (التراتبية)، الزوج خاصة/عامة فرضه الواقع التاريخي في هذه الفترة فمن العدل أن يكون هنالك تراتب وقد تجسد هذا المفهوم في سلوك الخليفة الفاروق "العادل" عمر بن الخطاب رضي الله عنه (ت23هـ/643م) والتغيير الذي أحدثه في ديوان العطاء[1] فَفَضلَ السابقة من شهد بدر وقبلهم من أزواج الرسول صلى الله عليه وسلم ثم من هاجر قبل الفتح، ولمن أسلم بعد الفتح، ثم فرض للناس على منازلهم وقراءتهم القرآن وجهادهم، فجعل الديوان موضوعا على دعوة العرب في ترتيب الناس فيه، معتبرا بالنسب وتفضيل العطاء ومعتبرا بالسابقة في الإسلام وحسن الأثر في الدين، ثم روعي التفضيل عند انقراض أهل السوابق بالتقدم في الشجاعة والبلاء في الجهاد، كما عاتب عمر بن الخطاب أبو بكر الصديق رضي الله عنه (ت13هـ/634م) حين سوى بين الناس فقال "أتسوي بين من هاجر الهجرتين وصلى القبلتين وبين من أسلم عام الفتح خوف السيف؟" فرد عليه أبو بكر "إنما عملوا لله وإنما أجورهم على الله وإنما الدنيا دار بلاغ". فردّ عليه عمر بمقولته الشهيرة "لا أجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه"[2].

فحينما نقابل بين أهل الرسول وقرابته وصحابته وأولي السابقة والقادة والأمراء والعلماء (أهل الحل والعقد) وبين الرعية بمفهومها العريض بما فيهم الطلقاء و"المؤلفة قلوبهم"[3]، أو الهاربون من غرم الجزية[4] نجد المساواة أمرا مستحيلا ويظهر معيار التقوى والورع والإيمان والعمل (الجهاد) أساس التفاضل بين الناس مصداقا لقوله عز وجل:

1- أنظر: الماوردي، المصدر السابق، ج2 ص421 -423.

2- الماوردي، المصدر السابق، ج2 ص421.

3- أنظر: ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم، ت213هـ/828م): المعارف، تحقيق ثروة عكاشة، ط2، دار المعارف، مصر، 1969م. يورد أسماء المؤلفة قلوبهم، ص342، وأسماء المنافقين، ص343.

4- البلاذري (أبو الحسن أحمد بن يحيى، ت279هـ/892م): فتوح البلدان، تحقيق الطباع عبد الله أنيس والطباع عمر أنيس، دار النشر للجامعيين، د م ن، 1957م، ص33-49.

(وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ)[1]، (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)[2]، (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)[3]، "الله فضل بعضكم على بعض في الرزق"[4].

إن الخاصة التي تظهر بهذا المعيار تجعل الاندماج بين قمة الهرم الاجتماعي -الخاصة- وبين سفحه -العامة- له ما يبرره على مستوى الواقع، فقد ترجمته[5] الأحداث التاريخية ومستوى التطبيق الفعلي للنص القرآني والسنة النبوية، وكانت دلالة المساواة حاضرة بين الناس فهم من الناحية الاجتماعية متساويين بغض النظر عن الجنس أو اللون أو الثروة أو الجاه أو المكانة وبالتالي فالناس سواسية كأسنان المشط فلا حواجز متحاجرة بين القمة والقاعدة، وبالتالي لا يمكن تحميل بعض الألفاظ مثل "انقسام" و"تراتب" و"مساواة" أكثر من طاقتها الدلالية وخصوصيتها التاريخية.

2- العصر الأموي: إلا أن هذا الاندماج بين القمة والقاعدة لم يدم طويلا، وبدأ التوزع والتبعثر ببداية معاوية بن أبي سفيان (ت60هـ/979م)، وعلى امتداد الدولة الأموية (40-132هـ/660-749م) بكل مراحلها وخصائصها، ومن العبث إغفال حقيقة أجمعت عليها معظم المصادر، وعبر عنها ابن خلدون بكثير من الصراحة والعمق وهي انقلاب الخلافة إلى ملك عضود، "وإنما الملك على الحقيقة لمن يستعبد الرعية ويجبي الأموال ويبعث البعوث ويحمي الثغور، ولا يكون فوق يده يد قاهرة..."، ويجري ابن خلدون مقارنة بين الملك والخلافة "فالملك طبيعي هو حمل الكافة على مقتضى

1- سورة الزخرف، الآية: 32.

2- سورة الزمر، الآية: 9.

3- سورة المجادلة، الآية: 11.

4- سورة النحل، الآية: 71.

5- هو ما يتجسد في فترة الصحابة إذ تحفل المصادر بنماذج كثيرة، أنظر: ابن الأثير(أبو الحسن علي بن أبي الكرم، ت650هـ/1252م): أسد الغابة في معرفة الصحابة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت؛ الكاندهلوى (محمد يوسف): حياة الصحابة، تحقيق لجنة من العلماء والباحثين، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت، 1987م.

الغرض والشهوة، والسياسي هو حمل الكافة على مقتضى النظر العقلي في جلب المصالح الدنيوية ودفع المضارّ والخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها..."[1]، فمن مقتضى الغرض والشهوة ومقتضى النظر العقلي إلى مقتضى النظر الشرعي اصطدم المثال بالواقع وتقاطع خطي ما يجب أن يكون وما هو كائن، ومن هنا بدأ الإشكال يأخذ بعدا أخر والذي يمثل حجر الزاوية في هذه الدراسة.

تظهر دولة الملك بكل دلالاتها ومستلزماتها، وأول صورة برزت أنها لم تستلهم النموذج والمثال من حكم الرسول صلى الله عليه وسلم أو الخلفاء الراشدين ولا يمكن أن نتتبع مظاهر هذا الملك بتجاوزاته ونتائجه لأنه ليس من أهداف الدراسة بقدر ما نريد أن نوضح بداية الانفصال البنيوي بين "القمة" و"القاعدة".

إن أدبيات العصر الإسلامي الوسيط قد احتفظت لنا بالنظرة الأموية في تقسيم المجتمع، وفقا للمرحلة الجديدة التي تعيشها، وسنعرض ثلاث روايات أموية أما الأولى فقد سأل معاوية صعصعة بن صوحان صف لي الناس، فقال: "خلق الله الناس أطوارا (أخيافا)، فطائفة للسياسة (السيادة والولاية)، وطائفة للفقه والسنة (العبادة)، وطائفة للبأس والنجدة، وآخرون (رجرجة) بين ذلك يكدرون الماء ويغلون الأسعار ويضيقون الطَريق"[2]. والرواية الثانية، مقولة لزياد بن أبيه لما ولي البصرة (ت53هـ/672م) "أني رأيت ثلاث نبذت إليكم منهن النصيحة، لا يأتيني شريف بوضيع لم يعرف شرفه إلا عاقبته، ولا كهل بحدث لم يعرف سنه إلا عاقبته، ولا عالم بجاهل لم يعرف عنته إلا عاقبته، فإنما الناس بأشرافهم وذي سنهم وعلمائهم"[3].

1- ابن خلدون (أبو زيد عبد الرحمن بن محمد، ت808هـ/1406م): المقدمة، ط2، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني، بيروت، 1961م، ص333، 338.

2- الجاحظ، المصدر السابق، ص483.

3- الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د ت، 315/1.

أما الرواية الثالثة فتنسب لشهاب الزهري حين قدم على الخليفة عبد الملك بن مروان وسأله من يسود مكة فأجابه بأنه عطاء بن أبي رباح، فسأله عن أصله "أفمن العرب هو أم من الموالي" فأجابه "من الموالي" فسأله الخليفة "بما سادهم" أجابه "بالديانة" فعلق بأن قال: "أهل الديانة والرواية ينبغي أن يسودوا"، فقال: من يسود أهل اليمن؟ قلت: طاوس بن كيسان، قال: أفمن العرب هو أم من الموالي؟ قلت: من الموالي قال: فبم سادهم؟ قلت: بما سادهم به عطاء قال: فمن يسود أهل مصر؟ قلت: يزيد بن أبي حبيب قال: أفمن العرب هو أم من الموالي؟ قلت: من الموالي قال: فمن يسود الشام؟ قلت: مكحول قال: أفمن العرب هو أم من الموالي؟ قلت من: من الموالي عبدا نوتي أعتقته امرأة من هذيل قال: فمن يسود أهل الجزيرة؟ قلت: ميمون بن مهران قال: أفمن العرب هو؟ قلت: من الموالي قال: فمن يسود أهل البصرة؟ قلت: الحسن البصري قال: أفمن العرب هو؟ قلت: من الموالي قال: ويلك فمن يسود أهل الكوفة؟ قلت: إبراهيم النخعي قال: أفمن العرب؟ قلتك من العرب قال ويلك فرجت عني والله ليسودن الموالي العرب حتى يخطب لها على المنابر والعرب تحتها قلت: يا أمير المؤمنين إنما هو دين من حفظه ساد ومن ضيعه سقط[1].

إن الرواية وإن حددت الدين كمعيار أساسي في السؤدد "من حفظه ساد ومن ضيعه سقط" فبقية الحوار الذي تم بين الخليفة وابن شهاب الزهري يبين عمق الألم الذي يحدثه سيادة مولى على عربي، ومن سبع موالي سادوا كل من أهل مكة، واليمن، ومصر، والشام، والجزيرة، والبصرة، وخراسان وعربي واحد يسود الكوفة يصبح وقعها قويا على أمير أموي عربي ترجمتها مقولته "ويلك من يسود الكوفة" ولما يفصح له بأنه عربي بعد سلسلة طويلة من الموالي ينبسط انبساطا مشوبا بعدم الرضا (فرجت عني).

1- التوحيدي (أبو حيان علي بن محمد، ت414هـ/1023م): البصائر والذخائر، تحقيق وداد القاضي، ط1، دار صادر، بيروت، 1988م، 85/8.

يتضح بجلاء من خلال هذه الروايات الثلاث أن المفاهيم العربية القديمة التي وجدت في العصر الجاهلي قد عادت من جديد كالسيادة والشرف والسن:

أما السيادة فهي منزلة ودرجة لا تتأتى لأحد إلا باعتراف قومه له بسيادته وبتنصيبهم له سيدا عليهم، والسيد الذي فات غيره بالعقل والمال والنفع والدم، والسادات هم الرؤوس، رؤوس الناس أما من دونهم فأذناب، وعرفوا بأذناب الناس وذنباتهم أي أتباعهم[1]، وأما الشرف فهم الذين نالوا الشرف والسؤدد بين قومهم فسادوا، ويقال لأشراف القوم والبارزين منهم وجوه القوم[2]، وللسن أهمية كبيرة عند العرب، فالإنسان إذا تقدم في السن ازدادت حكمته وتجاربه في الحياة ورجح عقله، لذلك يكون مرجحا لمن هو دونه في العمر، وملاذا في المشورات ويعبّر عنهم "بذوي الأسنان"، "الأكابر والأشراف"، لذلك جعلوا في الطبقات العليا من الناس[3].

وأضيف إلي هذه المفاهيم القديمة مفاهيم جديدة كانت الصيغة الإسلامية واضحة في تكوين بنية المجتمع الإسلامي وهي على التوالي: الموالي وأهل البأس والنجدة وأهل الفقه والسنة؛ ذلك أن اتساع الرقعة الجغرافية -وهذا من أهم مميزات العصر الأموي- ترتب عنه دخول الموالي بشكل كبير إلى الدولة الإسلامية -الأمصار أدى إلى انفجار اجتماعي بدأ يعطي ملامح جديدة للمجتمع الإسلامي، أحيت فيه

1- ابن منظور (أبو الفضل محمد بن كَرم، ت711هـ/1311م): لسان العرب، تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، د ت، ج3 ص2144؛ جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط4، دار العلم للملايين، بيروت، مكتبة النهضة، بغداد، 1970م، ج4 ص559-544.

2- ووجهاء القوم وأما السروات مثل سروات الأنصار وسروات قريش ففي هذا المعنى وجوه الأنصار وأسرافهم وسري هو الرئيس وتعنى كلمة النواصي خيار العرب وأشرافهم فيقال هو ناصية قومه أو هو من ناصيتهم والنصية الأخيار والأشراف. ابن منظور، المصدر السابق، ج3 ص2241، ج6 ص4448؛ جواد علي، المرجع السابق، ج4 ص560؛ البلاذري، أنساب الأشراف، تحقيق محمد حميد الله، دار المعارف، مصر، 1959م، ج1 ص20.

3- ابن منظور، المصدر السابق، ج3 ص2122؛ جواد علي، المرجع السابق، ج4 ص561؛ يراجع: ر.ب. سرجنت، "الطبقات الاجتماعية" في شبه الجزيرة العربية، نشر ضمن ملتقى المدينة الإسلامية، ص133-153.

النعرة القبلية العصبية والصراع[1] إلى جانب كونه قيسيا يمنيا فهو عربي -أعجمي أيضا- وأصبح المجتمع عربيا وغير عربي، متمايز بين عرب سادوا[2] بحق الفتح والدين وقوة السلطة، وغير عرب عدوا رعية من الدرجة الثانية عليهم الكثير ولهم القليل وأهم مظهر من مظاهر هذا التفاوت الطبقي بين العرب في العصر الأموي هو اضطرار كل مسلم غير عربي أن ينتمي بالولاء لقبيلة عربية وعليه انقسم المجتمع إلى طبقتين تتمايزان بوضوح، طبقة العرب وطبقة الموالي، هذه الأخيرة التي بدأت تشعر بتواجدها الهامشي وأضحت تبحث عن وسيلة إعادة الاعتبار لمكانتها الاجتماعية[3]، فكان الولاء طريق الموالي للاستعراب في ظل الدولة العربية الإسلامية، وهذا الاستعراب تم على مستويين الاستعراب اللساني بتعلم العربية والاستعراب الاجتماعي النسبي بالانتماء إلى القبائل العربية وأنسابها، إن الولاء لحمة كلحمة النسب[4].

ثم إن مرحلة الفتوح أعطت سمة اخرى للمجتمع الأموي، وهو المجتمع المحارب أناطت فيه السيادة بالقوة العسكرية -طائفة البأس والنجدة- لأنها مرحلة توسع، وكان الاعتماد على الجند الذين اكتسبوا أهمية خاصة في ظل دولة تقوم مواردها

1- حول هذه المسألة أنظر ابن قتيبة، المعارف، تحقيق عكاشة ثروت، ط2، دار المعارف، مصر، 1969م، ص350، 420، 421، 422؛ والجاحظ، الرسائل السياسية، تقديم وشرح أبو مسلم علي، ط1، مكتبة الهلال، بيروت، د ت، ص476، 482، 483؛ وابن خلدون، المقدمة، ص326-327. بوبة مجاني: أثر العرب اليمنية في تاريخ بلاد المغرب في القرون الثلاثة الأولى للهجرة، رسالة ماجستير مرقونة، جامعة القاهرة، 1982م، ص165.

2- إن السيادة الأموية تمتد جذورها إلى ما قبل الإسلام، فهم ممثلو الأرستقراطية القرشية القديمة، وسادة تجار مكة، وأصحاب رؤوس الأموال فيها، ولما دخلوا إلى النظام الجديد بعد الإسلام استطاعوا بالسيادة والقوة والسيف أن يعودوا إلى مكانتهم القديمة. أنظر: رسالة مفاخر بني أمية، الجاحظ، الرسائل السياسية، ص436؛ 439، 440، 443؛ ونبيه عاقل: ملامح الصراع الطبقي في التاريخ العربي، مجلة دراسات تاريخية، عدد43، 44، 1992م، دمشق، ص91، 92.

3- أنظر: رسالة في مناقب الفرس والترك ومفاخر الموالي، الجاحظ، الرسائل السياسية، ص483.

4- أنظر: الجاحظ، الرسائل السياسية، ص483؛ وابن منظور، المصدر السابق، ج6 ص4921؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ص237، 238؛ محمود المقداد: الموالي ونظام الولاء من الجاهلية إلى أواخر العصر الأموي، ط1، دار الفكر، دمشق، 1988م، ص135، 146، 147.

الاقتصادية على ريع الفتوح، فالمدن التي نزلها العرب أول الأمر كانت تعج بالقبائل العربية المحاربة، وأصبحت مراكز تجمعات حضرية زالت عنها الصفة العسكرية ونشطت فيها الفعاليات المدينية.

إن اتساع المجتمع الجديد تطلّب نظاما جديدا إذ أضحت العلاقة بين الثنائي خاصة/عامة مغايرة عما كانت عليه سابقا من مرونة واندماج، بل صارت تتوسط بين طرفيه أجهزة إدارية ومؤسسات جديدة أحدثت الانفصال بين القمة والقاعدة، أو بين الخاصة والعامة أو بتعبير أكثر دقة بين السلطة والرعية، لترتبط الخاصة في بنيتها وعناصرها المميزة بالدولة أو الولاية مكونة الطبقة الحاكمة، وتربط العامة بقطاعها العريض بالمجتمع مكونة الطبقة المحكومة.

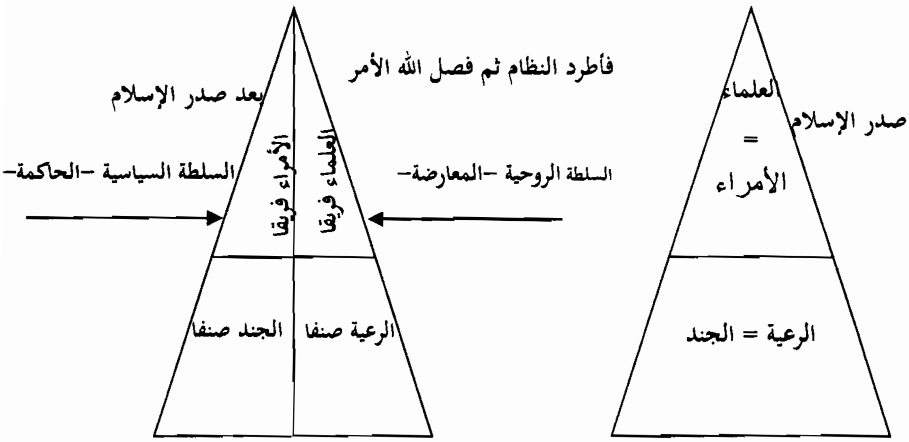
لقد تغيرت الخاصة في تركيبتها وبنيتها بناء على ما وقفنا عليها من جديد في ظل حكم الأمويين، سواء في العاصمة المركزية أو الولايات التابعة، وأصبحت الخاصة مقتفية سياسة "الخليفة" أو "الأمير" ولمن يراهم "أوفياء" و"ثقاة"، ويراهم هو خاصة له فأصبح انتقاؤها له ما يبرره على المستوى الديني والسياسي[1] وبعد الثورات التي قامت بها فرق الخوارج والعلويون والشيعة على الحكم الأموي، تشكلت قوة معارضة من العلماء "أهل الفقه والسنة" و"أهل العبادة" خرجت عن طاعة السلطة وبالتالي الدولة، بهذا الطرح فالذين يشكلون "نخبة" خارجة عن دائرة السنة تكون بالضرورة خارجة عن دائرة الدولة، وعززت هذه المعارضة قوتها باحتواء غضب وتذمر العامة – الموالي منهم– من تجاوزات السلطة الأموية وشكلوا سلطة أدبية وروحية لها، هذا الاحتواء من قبل المعارضة للعامة جعل المجتمع ينقسم إلى جانب الانقسام الأفقي

1– عبد الجواد ياسين، السلطة في الإسلام، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1998م، ص258.

انقساما عموديا[1] شخصها ابن العربي[2] بكثير من الوضوح والعمق في قوله "كان الأمراء قبل هذا اليوم وفي صدر الإسلام هم العلماء والرعية هم الجند فاطرد النظام وكان العوام والقواد فريقا والأمراء آخر ثم فصل الله الأمر بحكمته البالغة وقضائه السابق، فصار العلماء فريقا والأمراء آخر وصارت الرعية صنفا، وصار الجند آخر، فتعارضت الأمور ولم ينتظم حال الجمهور وطرح الناس عن الطريق".

من خلال هذا النص يتبين اندماج بين القمة والقاعدة -الخاصة والعامة- فالمعيار هنا ديني مع أن مفهوم الرعية تجلى في الجند لأن الفترة هي فترة الدعوة والفتوح، وعليه كان الانقسام أفقي في الهرم الأول وانقسام عمودي في الهرم الثاني على مستوى القمة العلماء فريق، والأمراء فريق كبنية جديدة للخاصة لا يميزها العلم والتدين فقط بل السياسة أيضا. وانقسام عمودي آخر على مستوى القاعدة الرعية بقطاعها العريض ثم الجند الموالي لحكم السلطة، فهذا التشخيص نجده تقريبا في معظم الدول والإمارات التي انشقت عن السلطة المركزية.

يمكن قراءة النص من خلال الشكلين التاليين:



1- محمد عابد الجابري: العقل السياسي العربي محدداته وتجلياته، ط2، المركز الثقافي العربي،، بيروت، 1991م، ص333.

2- هذا النص أورده ابن الأزرق(أبو عبد الله، ت896هـ/1490م): بدائع السلك في طبائع الملك، تحقيق وتعليق علي سامي النشار، منشورات وزارة الثقافة والفنون، الجمهورية العراقية، 1978م، ج1 ص391.

لقد أصبحت الأزواج المفاهيمية السابقة انقسام/مساواة خاصة/عامة تحمل أبعادا ومعطيات غير الخاصة والعامة التي ظهرت بكثير من القداسة في فترة الدعوة والخلافة الراشدة -صدر الإسلام- بل تحكمت فيها معايير جديدة تعكس التنظيم السياسي بكل مقوماته ودعائمه النظرية والتشريعية، رسختها الدولة العباسية بكثير من العمق والتقنين.

3- العصر العباسي:

لقد شكل الانتماء إلى الخاصة، والانتماء إلى العامة حلقة من حلقات الدستور العباسي المأخوذ عن الفرس، إذ أقر الجاحظ[1] "عنهم أخذنا قوانين الملك والمملكة، وترتيب الخاصة والعامة وسياسة الرعية وإلزام كل طبقة حظها والاقتصار على جديلتها". هؤلاء الفرس الذين دخلوا إلى الكيان الإسلامي على المستوى الرسمي والشعبي، ومارسوا نوعا من الوصاية السياسية والثقافية على البلاط العباسي وبطانته فقننتها طبقة الكتاب والأدبيات السلطانية[2].

يعتبر عبد الله بن المقفع (ت148هـ/765م) من أوائل الكتاب -ومعظمهم من ذوي أصول فارسية[3]- الذين ألحوا على ضرورة تمييز الناس بجعلهم "طبقتين متباينتين يلبس لهم لباسين مختلفين، فطبقة من العامة يلبس لهم لباس انقباض وانحجاز وتحفظ في كل كلمة وخطوة، وطبقة من الخاصة يخلع عندهم لباس التشدد ويلبس لباس الانسة واللطفة والبذلة والمفاوضة، ولا يدخل في هذه الطبقة إلا واحد من الألف، وكلهم ذو فضل في الرأي، وثقة في المودة، وأمانة في السر ووفاء بالإخاء"[4].

1- التاج في أخلاق الملوك، ص23.

2- ظهور الكتابة كحرفة سلطانية ارتبطت بالخليفة (الملك)، أنظر حول هؤلاء الكتاب ابن النديم(أبو الفرج محمد بن اسحاق، ت385هـ/1047م): الفهرست، المطبعة الرحمانية، مصر، د ت، ص168.

3- ابن النديم، المصدر السابق، ص421-424.

4- ابن المقفع، الأدب الصغير والأدب الكبير، دار بيروت، بيروت، 1980م، ص22.

وابن المقفع من موقعه ككاتب يحدد في تأليفه المعايير سياسية لتقسيم الناس إلى خاصة وعامة وفق الميراث الساساني، وقد لقي هذا التقسيم في الكتابات اللاحقة رواجا وتطويرا كما هو عند الجاحظ (ت255هـ/868م) الذي نسب له "التاج في أخلاق الملوك". وهو في سيرة ملوك الفرس وقد أضيف له فصل في سيرة بعض بني العباس ليظهروا بمظهر المستلهمين لسيرة أولئك الملوك الفرس والمقتفين آثارهم في سياسة الملك، فعلى سبيل المثال يجمع الجاحظ بين حكي آنوشروان ومعاوية بن أبي سفيان وبعض أهل العلم بحكي هارون الرشيد كتفرد الملك بالتنصيب والتجمل ونحوهما وما يلفت الانتباه حول سيطرت النموذج الفارسي في عقلية الكتاب واتجاهاتهم حينما تنظر إلى التسوية بين الطبقات في أيام يزيد بن عبد الملك فنجد الجاحظ قد عابه وانتقده لأنه خالف ما كان يقوم به ملوك الأعاجم والعرب، فأقسام الناس عند الفرس أربعة: القسم الأول هم الأساورة من أبناء الملوك والقسم الثاني النساك وسدنة بيوت النار والقسم الثالث الأطباء والكتاب والمنجمون أما القسم الرابع فهم الزراع والمهان وأضرابهم[1].

وعليه فقد حاول هؤلاء الكتاب النظر إلى المجتمع العباسي بخلفية فارسية، وأضحت مقولات أردشير بن بابك الذي عرفته الأدبيات الناقلة عن الفرس بأنه أوّل من رتّب الرعية على طبقات ووضع لهم الكتب في الآداب الملوكية، وعلم مراتب الخلق في الديوان، ونصب الموبدان، وأصبح تقسيمه للناس الميثاق الشائع بينهم في رسم سياسة الحكام وأسلوب التعامل مع الخاصة والعامة، ومن أهم العهود التي عهد بها أردشير نصيحته الشهيرة "ما من شيء أسرع في انتقال الدول وخراب المملكة من

1- الجاحظ، التاج في أخلاق الملوك، ص25-30.

انتقال هذه الطبقات عن مراتبها حتى يرفع الوضيع إلى مرتبة الشريف ويحط الشريف إلى مرتبة الوضيع"[1]، وفي موضع أخر عند صاحب "أداب الملوك"[2] ينصح أردشير الملك "سوسوا الأحرار والأشراف باللين والعطف والأنذال والأراذل بالغلظ والعنف وامزجوا العامة الرغبة بالرهبة واللين بالشدة".

ولا يبتعد ابن الطقطقي[3] عن الجاحظ والثعالبي في مصنفه "الفخرى في الآداب السلطانية" وهو يحدد نوع المعاملة لكل صنف من أصناف الرعية فالأفاضل يساسون بمكارم الأخلاق والإرشاد اللطيف والأوساط يساسون بالرغبة الممزوجة بالرهبة والعوام يساسون بالرهبة وإلزامهم الجدد المستقيم وقصرهم على الحق الصريح.

إن النظام الكسروي لم يخل من إشادة وتمجيد له عند الجهيشاري[4] (ت331هـ/942م) الذي وجدها فرصة لإثارة انتباه البلاط العباسي إلى الدور البالغ الذي كان يضطلع به الكاتب في دولة بني ساسان، وما كان يتمتع به من قدرة على التدبير حتى في مواطن الظلم، وعند مرافقته للجيوش وأرباب السيوف، فعهود أردشير تؤكد على أهمية الوزير في التراتب السياسي في كل دولة، سلطتي القلم والسيف. كعائلة "البرامكة" و"بني سهل" الذين نجحوا في الترويج داخل بلاط الخلفاء والسلاطين للنموذج السياسي الكسروي، وقد حفل مصنف "الكتاب والوزراء" على نصوص مهمة حول شريحة الكتاب والوزراء، وترسيخهم كخاصة سياسية كانوا هم نواتها وبنيتها.

1- المصدر السابق، ص24.

2- الثعالبي، آداب الملوك، تحقيق عطية جليل، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990م، ص81.

3- الفخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار بيروت، بيروت، 1966م، ص4.

4- كتاب الوزراء والكتاب، تحقيق عبد الله إسماعيل الصاري، ط1، دار الصاري، القاهرة، 1938م، ج6ص134-249.

لقد حاول هؤلاء الكتاب أن يطبقوا الناس إلى طبقات ويرتبوا مراتبهم وينزلونهم على منازلهم، فالماوردي في نصيحته الخامسة للملوك في سياسة العامة كان تقسيمه للمجتمع يتقرب مع تقسيم الجاحظ إلى حد التناص، مما يوضح دلالة التأثير الفارسي على مستوى المضمون والشكل، خاصة مبنى اللغة فعلى الملك "أن يعرف طبقات الناس ومراتبهم من أبناء الملوك وأشراف وذوي الأحساب والأنساب وأولادهم والعلماء والنساك وذويهم وأرباب الصناع والأراضين والتجار والصناع والمهنة وأصحاب الأقدار منهم ويرتبهم مراتبهم وينزلهم منازلهم"[1].

ومسألة "إنزال الناس منازلهم" بدأت مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما دون الديوان ونادى "أكتبوا الناس على منازلهم، وابدأوا ببني هاشم فكتبوهم وبقرابة الرسول صلى الله عليه وسلم، فالأقرب حتى تضعوا عمر حيث وضعه الله... ثم فرض للناس على منازلهم وقراءتهم للقرآن وجهادهم..."[2].

إن فكرة "إنزال الناس منازلهم" في العصر الإسلامي الوسيط، كانت من "مظاهر العدل السياسي والاجتماعي"[3] وإن تغير النسب فيما بعد من قرابة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى قرابة الخليفة أو الأمير ومن صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى صحابة الخليفة أو الأمير، فقد تشكل المبدأ الأساسي الذي جرى عليه أي تفاضل "فإن أرادت العامة منازل الخاصة حسدتها عليها وتمنت أمثالها..."[4]، وإن أردت أن تبلغ أحضى درجة الآداب وأهلها "فاصحب ملكا أو وزيرا"[5].

1- الماوردي، نصيحة الملوك، تحقيق خضر محمد خضر، ط1، مكتبة الفلاح، بيروت، د ت، ص205.

2- الماوردي، الأحكام السلطانية، ج2 ص419-422.

3- الجابري، المرجع السابق، ص332.

4- التوحيدي، البصائر والذخائر، ج1 ص277.

5- ابن الفقيه الهمذاني (أبو بكر أحمد بن محمد، ت بعد 290هـ/902م): مختصر كتاب البلدان، مطبعة ليدان، 1885م، ص1.

إن هؤلاء الكتاب الذين طعّموا الثقافة العربية والمجتمع الإسلامي بعناصر أجنبية جديدة وروجوا أدبا سياسيا فارسي المرجع[1]، قسموا الناس بالنظر إلى أنفسهم إلى قسمين، وهنا تلميح واضح إلى خاصة تتشكل من شرائح يكونون هم على رأسها باعتبارهم "الصحابة"[2]، المميزين بالقدرات العقلية والصفات المعنوية لدى الأمير وبالتالي فهم بعض خاصته فلا يشدنا العجب من مقولة المأمون (ت218هـ/833م) "السوقيون سفل والصناع أنذال والتجار بخلاء، والكتاب ملوك على الناس"[3]؛ ومن هنا يجب أن تتحدد العلاقة بين الأمير والخاصة والعامة، كانت على شكل نصائح أخذت بعدا نظاميا مقننا، مما جعل الخاصة والعامة منذ بداية العصر العباسي كمصطلحين يحملان تركيبا جديدا ومعايير متداخلة لها أبعادها السياسية والاقتصادية والثقافية.

ثانيا/ معايير التصنيف الطبقي في أدبيات العصر الإسلامي الوسيط

1- جدولة للهرمية التراتبية للمجتمع الإسلامي:

لا يمكن دراسة الخاصة والعامة بمعزل عن المعايير الأساسية المحددة للتصنيف الطبقي للمجتمع من خلال أدبيات العصر الإسلامي الوسيط، ولأن العامة بمدلولها اللغوي ومنظور المصادر إليها لا تتسع لها هذه الدراسة التي تحاول أن تقدم قراءة للهرمية التراتبية للمجتمع الإسلامي في العصر العباسي عن طريق الجداول التالية لأنها تعد اللغة الناطقة القادرة على توضيح أكثر من الكتابة النثرية، وقد أمدتنا بعدة قراءات:

1- علي أومليل، السلطة الثقافية والسلطة السياسية، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1996م، ص145.

2- ابن المقفع، رسالة في الصحابة ضمن جمهرة رسائل العرب، تصنيف صفوت أحمد زكي، المكتبة العلمية، بيروت، د ت، ص44.

3- ابن الفقيه الهمداني، المصدر السابق، ص1.

- **الأولى**: يجب أن ننظر إلى الجدولين لنلاحظ أن هناك تقسيمان شائعان للمجتمع الإسلامي في العصر العباسي، ولكل قسم قراءته - تقسيم رباعي والآخر ثلاثي.

- **الثانية**: إن التقسيم الثلاثي نوعان الأول مستمد من خلال كتب الأدب ومرايا الملوك من أقوال الأمراء والكتاب والنوع الثاني من خلال آراء الفلاسفة والأصوليين والمتكلمين

- **الثالثة**: هو قراءة هذه الجداول قراءة عمودية، وذلك لمعرفة التراتب مَن الذين يبدأ بهم إلى أن نصل إلى الذين ينتهي إليهم -كل عمود على حدة.

- **الرابعة**: هو قراءة هذه الجداول قراءة أفقية لمقابلة النصوص لنلاحظ عمق التناص الموجود بينها ودرجة اتفاقها واختلافها في تغيير بعض المراتب خاصة المستوى الثاني والثالث.

- **الخامسة**:

أن هذه الجداول تمنح المعايير الثلاث في التقسيم الطبقي للمجتمع (المعيار السياسي والاقتصادي والمعرفي)، فالنص الواحد من هذه النصوص يستدل به في كل المعايير مما يعطي دلالة التداخل.

- التقسيم الرباعي:

طبقات الناس عند الفضل بن يحيى أربع[1]	طبقات الناس عند الأحنف بن قيس أربع مجازا[2]	طبقات الناس عند الفرس أربع الجاحظ[3]	طبقات الناس عند الماوردي أربع[4]	طبقات الناس عند المأمون أربع[5]
1- ملوك قدمهم الاستحقاق	1- رؤوس رفعهم الحظ	1-الأساورة من أبناء الملوك	1- الملوك والأشراف وذوي الأحساب والأنساب وأولادهم	1- سيادة/إمارة
2-وزراء فضلتهم الفطنة والرأي	2- أكتاف عظمهم التدبير	2- النساك وسدنة بيوت النار	2- العلماء والنساك وذويهم	2- صناعة/كتابة
3- علية أنصفهم اليسار	3- أعجاز شهرهم المال	3- الأطباء والكتاب والمنجمون	3- أرباب الضياع والأرضين والتجار	3- تجارة
4- أوساط ألحق بهم التأدب - والناس بعدهم زبد وجفاء وسيل غثاء لكع ولكاع وربيضة أقضاع هم أحدهم طعمه ونومه	4- أدباء ألحقهم بهم التأدب - ثم الناس بعدهم أشباه البهائم إذا جاعوا ساموا وإذا شبعوا ناموا	4- الزراع والمهان وأضرابهم	4- الصناع والمهنة	4- زراعة - وما سوى ذلك فإنهم يغلون الأسعار ويكدرون المياه

1- ابن الفقه الهمذاني، المصدر السابق، ص1.

2- المصدر السابق، ص1.

3- الجاحظ، التاج في أخلاق الملوك، ص30.

4- الماوردي، نصيحة الملوك، ص205.

5- الراغب الأصفهاني، المصدر السابق، ص459؛ البيهقي، المحاسن والمساوئ، مطبعة السعادة، مصر، د ت، ج1 ص77.

- التقسيم الثلاثي (النوع الأول):

ابن رسته[1] الناس ثلاثة طبقات	**الجاحظ[2] الناس ثلاثة أنماط**	**العامري[3] الناس ثلاثة أصناف**	**ابن الطقطقي[4] الناس ثلاثة أصناف**
1- الرؤساء والأجلة الخاصة	1- الملوك الخاصة	1- ملوك أعزة ولاة المنابر الخاصة	1- الأفاضل الخاصة
2- ويليهم الأوساط الطبقة الوسطى	2- النمط الأوسط الطبقة الوسطى	2- أصحاب المغازي حازوا نعما جسيمة وأملاك عريضة الطبقة الوسطى	2- الأوساط الطبقة الوسطى
3- السوقة العامة	3- العامة	3- الجمهور العامة	3- العوام

- التقسيم الثلاثي (النوع الثاني):

الفاربي[5] الناس ثلاثة طبقات	**الغزالي[6] الناس ثلاثة أصناف**	**ابن رشد[1] الناس ثلاثة أصناف**	**البقاعي[2] أقسام الناس ثلاثة**

1- الأعلاق النفيسة، ليدن، 1891م، ص153.

2- المصدر السابق، ص17.

3- العامري: الاعلام بمناقب الإسلام، تحقيق عزاب أحمد عبد الحميد، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1967م، ص13.

4- المصدر السابق، ص41.

5- المصدر السابق، ص43، 44.

6- فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة، تحقيق سليمان دنيا، ط1، دار إحياء الكتب العربية، 1961م، ص96.

1- فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال، تقديم أبو عمران الشيخ وجلول البدوي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982م، ص60.

2- مقامة الإعلام بأهل العلم والعوام ضمن مجموع مخ دار الكتب الوطنية، تونس، رقم 17934، ص81، 82.

1- الخـــــواص الفلاسفة	1- خواص	1- خواص	1- الموصـوفون بحـدة الخـواطر والأذهان ووقور العقول والألباب المتفرغون للتأمل -خواص-
2- علمـاء الـدين الجـــدليون المتكلمون والفقهاء	2- أهل جدل الفلاســفة المتكلمــة الجدليون	2- أهل جدل الفقهاء المتكلمون	2- الموصوفون برجاحة العقول والمشـتغلون بالمصـالح الدنيويـة والمكاسب التي يقوم بها أسباب المعاش -الأوساط-
3- العامـــة والجمهور	3- عوام	3- الجمهور -العوام-	3- المجبولون على بلادة الأفهام وغلط الخواطر عوام

لقد ورد المجتمع الإسلامي في العصر العباسي بتقسيمين شائعين، تقسيم ثلاثي وتقسيم رباعي، ولكلا التقسيمين دلالة، فالثلاثي يوضح بعمق الطبقات الثلاث للمجتمع بين الملوك والأوساط والعامة، وأهمية هذا التقسيم تكمن في إجرائيته وتوضيح الأوساط في الهرم الاجتماعي، وإن عابه شرائح هذه الطبقات الضامرة، وهي مزية نجدها في التقسيم الرباعي لأنه يوضح التقسيم الثلاثي ويبيّن ملامح وشرائح كل طبقة من الطبقات الثلاث سواء تصريحا أم ضمنا.

2- المعيار السياسي -الخاصة وجاه السيف-:

إن القراءة الأفقية للجداول تعطي تركيبة الخاصة التي تبلورت منذ بداية العصر العباسي، وقد تم الوقوف عندها من خلال طبقة الكتاب والأدبيات السلطانية وأعطت للسلطة والسلطان المعيار الأول في بنية خاصة المجتمع، ترسخ أكثر مع امتداد العصر العباسي -زمان ومكانا.

فالفضل بني يحيى البرمكي (ت193هـ/808م)، من موقعه كفارسي الأصل ووزير أول لدى الخليفة هارون الرشيد (ت193هـ/808م)، يبدأ "بالملوك قدّمهم الاستحقاق"[1]

1- التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، ج2 ص218.

وهم مجازا "رؤوس رفعهم الحظ" "وأسود يفرسون ويأكلون"، وتصريحا عند المأمون في السيادة والإمارة، وعند الفرس "الأساورة من أبناء الملوك" وعند الماوردي "الملوك والأشراف وذوي الأحساب والأنساب وأولادهم" وعند العامري "ملوك أعزة وولاة المنابر والأسرة نفذ حكمهم على الأقربين والأبعدين".

الحديث عن "الملك" و"السلطان" و"الخليفة" و"الأمير" يقود للحديث عن الجاه لأنه جزء من السلطة والسيادة والمطلب المفضل للارتقاء، فالكلمة تعني لغويا[1] المنزلة والقدرة عند السلطان، ويعد فقدان الإنسان قدره من أسوأ النكبات فالخير والسعادة مقترنان بحصوله، فصاحب المال مخدوم بالأعمال يتقرب بها في سبيل التزلف والحاجة إلى جاهه كما أن الأعمال لصاحب الجاه كثيرة تفيد الغنى ويزداد مع الأيام يسارا وثروة[2].

فالجاه مطلب الخاصة من وزراء وكتاب وقادة، ورتبوا بعد الملوك "وزراء فضلتهم الفطنة والرأي" و"أكتاف عظيم التدبير"، "وأهل الصناعة عند المأمون" "فالرئاسة الدنيوية مقسومة بين السيف والقلم فأما رياسة السيف فللملوك والأمراء وقواد العساكر، ورئاسة القلم فللوزراء والكتاب والقضاة والخطباء ومن يجري مجراهم، وأصحاب السيوف هم الحماة، وأصحاب الأقلام هم الكفاة وكل صناعة غير هاتين فليس يذكر صاحبها بعز"[3] ويؤكد ابن خلدون هذا الكلام فيذكر أن طبقة الخاصة تشمل كبار رجال السلطة ورجال الإدارة حيث وصفهم بأنهم "أوسع جاها وأعلى رتبة وأعظم نعمة وثروة وأقرب من السلطان مجلسا"[1].

1- ابن منظور، المصدر السابق، ج1 ص734.

2- ابن خلدون، المصدر السابق، ص694.

3- أمل إبراهيم صادق أبو ستة، عامة دمشق في العصر الفاطمي، رسالة دكتوراه، جامعة القاهرة، كلية الأدب، قسم التاريخ، 1997م، نقلا عن الدمشقي، الإشارة إلى محاسن التجارة، ص32.

1- ابن خلدون، المصدر السابق، ص456.

فالتقسيم الثلاثي للمجتمع نجد في قمة الهرم الاجتماعي "الرؤساء والأجلة" ثم "الأفاضل" "الملوك"، فالملك بقرابته وبطانته وحاشيته تشكل طبقة الخاصة التي تستمد جاهها من الملوك وتصل حد المساواة مع الملك فالثعالبي جعل الخواص نظراء للملوك لهذا فعلى هؤلاء الملوك أن يُستروا على الناس ولا يطلع عليهم غير هؤلاء الخواص"[1]. "ومن حقه الملك أن لا يغسل أحد بحضرته يديه من خاصته وبطانته إلا أن يكون معه من يساويه في الجاه والبيت والعز والموالاة"[2]، هذه المساواة بين الملك أو الخليفة وبين خاصته -أهل السيف والقلم- ضخمتها الأدبيات السلطانية كثيرا، "إن كان الوزير يساوي الملك في الجاه والهيبة والطاعة من الناس، فليصرعه الملك، فإن لم يفعل، فليعلم أنه المصروع"[3].

بناء على كل ما سبق توضيحه ندرك أن الخاصة تتفاضل في طبقات أيضا، لأنها لا تبدو منسجمة أو متماسكة، مما أدى إلى الاختلاف حول موقع الطبقة الوسطى -الأوساط- فهناك من يصنفها ضمن الخاصة وهناك من يصنفها ضمن العامة و"خاصة العامة" أحيانا، ذلك أن الأوساط أكثر الطبقات حراكا صعودا ونزولا اجتماعيا تبعا للتحولات السياسية والثقافية والاقتصادية لهذا نجد الخاصة تتسع أو تضيق تبعا لذلك.

3- المعيار الاقتصادي -الأوساط وجاه المال-:

إذا كان المعيار السياسي يتصدر طبقات الناس لأنه "أحد أسباب المعاش"[1] فالمعيار العلمي والاقتصادي مقترنان به، ونلاحظ من خلال الجداول بروز الأوساط إما تصريحا كما في التقسيم الثلاثي أم ضمنا من خلال الشرائح في التقسيم الرباعي،

1- الثعالبي، المصدر السابق، ص104.

2- الجاحظ، التاج في أخلاق الملوك، ص17.

3- الجهيشاري، المصدر السابق، ص8.

1- ابن خلدون، المصدر السابق، ص294.

والظاهرة البارزة في هذين الجدولين هو التداول بين العلم والمال، حتى النظرة الانطباعية الأولى تعطينا ملامح الطبقة التي تجمع بين العلم والمال وفرضت نفسها على أن تكون منزلة بين منزلتي الخاصة والعامة، "فاطلب في حياتك هذه العلم والمال تملك بهما الناس لأنك بين الخاصة والعامة، فالخاصة تعظّمك لفضلك والعامة تعظمك لمالك"[1].

إن نفوذ العلم بكل فروعه بدأ مع دولة الرسول صلى الله عليه سلم والخلفاء الراشدين ثم الدولة الأموية "أهل العبادة"، "أهل الفقه والسنة"، أخذوا مواقعهم من الخاصة والسلطة، وسواء أضحت خادمة أو محايدة أو معارضة فقد اتّسعت شريحتهم في القرن الثالث الهجري، فبالإضافة إلى العلماء فهناك الكتاب غير الرسميين والأطباء والزهاد والمتصوفة إلى جانب من تولوا الوظائف في الجهاز الإداري والمالي شكلوا مع "كبار التجار" طبقة وسطى لها ملامحها وخصائصها وأصبحت معتمدة كقوة هامة فكريا واقتصاديا واجتماعيا، وإنما سيعزز هذا المعيار من خلال تعريف إخوان الصفا للعلم "... فالعلم يكسب صاحبه عشر خصال محمودة، أولها **الشرف** وإن كان دُنيا، **والعز** وإن كان مهيبا، **والغنى** وإن كان فقيرا، **والقوة** وإن كان ضعيفا، **والنبل** وإن كان حقيرا، **والقرب** وإن كان بعيدا، **والقدر** وإن كان ناقصا، **والجود** وإن كان بخيلا، **والحياء** وإن كان صلفا، **والمهابة** وإن كان وضيعا، **والسلامة** و إن كان سقيما"[2] وكل هذا مصداقا لقوله عز وجلّ: (هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ)[1]، وقال سبحانه: (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ

1- أبو حيان التوحيدي، الامتاع والمؤسسة، ج2 ص48، 49.

2- إخوان الصفاء وخلان الوفاء: الرسائل، دار بيروت، بيروت، 1983م، ج1، ص348.

1- سورة الزمر، الآية: 9.

الْعُلَمَاءُ)[1] وآيات كثيرة في القرآن الكريم في مدح العلماء وفضائلهم وحسن الثناء عليهم.

ومنذ أواخر القرن الثاني الهجري وعلى امتداد القرنين الثالث والرابع، أصبحت المعايير السابقة غير قادرة على استيعاب التطورات الاقتصادية والاجتماعية في المجتمع الإسلامي، الذي كان يشهد ذروة نشاطه وازدهاره التجاري وتدفق الأموال عليه، فكان كبار التجار من أهم شرائح الطبقة الوسطى، باستنادهم إلى قوة السلطة شكلوا هيمنة على تجارة العبور، بعد إحكام السيادة على الطرق والمنافذ البرية والبحرية.

كان من الطبيعي في مثل هذا المجتمع الاقتصادي الرائج أن ساد نفوذ المال[2] وأصبح ميزان الرجال والإنسان تقدر قيمته ويحدد طراز معيشته ومكانته الاجتماعية وتساوت قيمته مع قيمة العلم[3] كعامل من عوامل الحراك الاجتماعي والارتقاء من

1- سورة فاطر، الآية: 28.

2- القرآن الكريم يشيد بالمال في مواضع كثيرة انظر على سبيل المثال لا الحصر: قوله عز وجل: (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) سورة الكهف، الآية: 46؛ وقوله أيضا: (وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا) سورة الفجر، الآية: 20؛ وقوله: (أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ) سورة المؤمنون الآية: 55-56؛ وقوله أيضا: (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ) سورة الحديد الآية: 20؛ وقوله أيضا: (بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ) سورة النساء الآية: 34؛ وقوله أيضا: (فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً) سورة النساء الآية: 95.

3- لقد تجلت قيمة المال في الأدبيات بشكل كبير جدا من قول الشاعر:

المال يستر كل عيب في الفتى *** والمال يرفع كل نذل ساقط
فعليك بالأموال فاقصد جمعها *** واضرب بكتب العلم عرض الحائط

وأكد شاعر آخر:

إن الغني إذا تكلم بالخطأ قالوا *** أصبت وصدقوا ما قالوا
وإذا الفقير أصاب قالوا كلهم *** أخطأت يا هذا وقلت ضلالا
إن الدراهم في المجالس كلها *** تكسو الرجال مهابة وجمالا
فهي اللسان لمن أراد فصاحة *** وهي السلاح لمن أراد قتالا

أنظر: الراغب الأصفهاني، المصدر السابق، ج3 ص191.

طبقة لأخرى، وفتح الباب على مصراعيه أمام المجدين من كل الطبقات لاكتناز ما يشاؤون من أموال، فظهرت طبقة اجتماعية جديدة وكبيرة من أرباب الأموال[1] والأملاك والتجار والموظفين والإداريين والصيارفة والسماسرة وغيرهم.

تنصهر جميع الأجناس في بوتقته، ولم يعد هناك فرق بين عربي ومولى وضعفت حدّة العصبية القبلية إثر ازدياد نفوذ الفرس والترك والبربر، واضطروا للنزول إلى ميدان العمل والكسب واشتغلوا بالزراعة والصناعة (الحرف) والتجارة، مما ساعدهم على الاستقلال تدريجيا عن قبائلهم، فذابوا في مختلف العناصر الموجودة في المجتمع، وأصبح الإنسان يلقب بمهنته، ومن ناحية أخرى اتسم هذا المجتمع بالمرونة، فطبقاته مفتوحة غير مغلقة، أو جامدة وانعدمت فيه الحواجز الاجتماعية الفاصلة كالتي تطالعنا عند دراسة المجتمعات الأوربية في العصور الوسطى واتسمت بأنها مغلقة وغير مرنة يحيطها سياج من الحواجز والفواصل الاجتماعية المتشددة التي تمنع انتقال الفرد من طبقة لأخرى، ويذكر أحد المختصين في الدراسات الأوربية الوسيطة "بأنه من الصعب النادر أن يستطيع رجل وضيع المولد أن يصبح صاحب إقطاع، ولو كان حرا وكان يحدث في كثير من الأحيان أن يحصل مزارع على ثروة كبيرة ولكنه يظل مع ذلك وضيعا في نظر الخاصة بحكم أصله"[2]، لهذا عرفت الطبقة بأنها "زمر مغلقة نسبيا ذات منزلة متفاوتة"[3] فالمرور من طبقة إلى أخرى صعب جدا في المجتمع الأوربي عكس المجتمع الإسلامي، حيث سمحت ظاهرة الحراك الاجتماعي أن تنشط وتتسع، فقد أثبت الواقع أن هناك شخصيات كثيرة نشأت من عامة المجتمع واستطاعت بقدراتها

1- إخوان الصفاء وخلان الوفاء، المصدر السابق، ج1 ص320.

2- سعيد عبد الفتاح عاشور: أوربا العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1986، ج2 ص276.

3- بيار لاروك: الطبقات الاجتماعية ترجمة: جوزف عبور كبه، ط:1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1973، ص5.

ومواهبها العلمية والتجارية أن تحرز ثروات طائلة وأن ترتقي إلى أعلى المناصب الإدارية ومنهم من أصبح رأسا في شتى أنواع العلم.

وسوف نجد ملامح الطبقة الوسطى لدى إخوان الصفاء بكثير من التوضيح لأنهم ينتمون إليها في صيغة "الكرام الفضلاء" و"الأصدقاء النصحاء" من أولاد العلماء وحملة الدين والفقهاء وأولاد التجار وأرباب الأموال المستبصرين بالعلوم الفلسفية، والأحكام الشرعية، والآداب الرياضية مثل الهندسة والنجوم والطب والفراسة والتدبير والسياسة"[1].

– التداخل بين السياسي والاقتصادي والعلمي:

إن التقسيم الطبقي المثبت في هذه الجداول هي عباسية الفترة تبنت الميراث الفارسي في النظر إلى المجتمع إلى جانب الصبغة الإسلامية التي أعطت خصوصية للتقسيم في التداخل بين الجاه والسلطة والثروة والعلم، لكن المشكلة أن قراءة هذه النصوص في بعض الأبحاث[2]، كانت قراءة أحادية عند الاستدلال بها في معالجتها لأساس التصنيف الطبقي، ذلك أن الأساس الاقتصادي ومعيار الثروة هو المعيار الوحيد الذي تنطق بهذه النصوص، مع أن في الجداول لم تتصدر الثروة طبقات المجتمع، خاصة نص الفضل بن يحي البرمكي الأكثر شهرة وتداولا بين الباحثين ففي هذا النص بالذات، كانت المرتبة التي احتلها أهل الثروة وهم عِليه أنهضهم اليسار" "وأعجاز شهرهم المال" الثالثة من أربع مراتب، والمجتمع في هذا النص يتحدد مكان الفرد فيه بنوع المنصب الذي يشغله، أو بمقدار الثروة والثقافة التي يملك، والناس بعدهم زبد وجفاء، لكن لم يحدد الناس في الفقراء فقط، بل كلمة "الناس" فضفاضة نستطيع أن نذهب أبعد من الفقر، ونقرأ النص بعمق أكثر وفق المعطيات السابقة

1- إخوان الصفاء وخلان الوفاء، المصدر السابق، ج4 ص189-170.

2- أنظر: محمود إسماعيل، دراسات في الفكر والتاريخ، دار سينا للنشر، القاهرة، 1993م، ص16، نبيه عاقل، المرجع السابق، ص94.

وتضع في كلمة "الناس" السوقة ≠ (السلطان)، والجهلة ≠ (العلماء)، والفقراء ≠ (الأغنياء) على السواء.

كما أن الطبقة الوسطى، ارتبطت ارتباطا شديدا بالدولة، ومنها كانت تستمد الجاه المفيد لمال، فالدولة عند ابن خلدون[1] هي "السوق الأعظم للتجارة"، وإذا "توفر المال لدى التاجر فحصلت له ثروة تعينه على الاتصال بأهل الدولة، فعل ذلك من أجل الظهور والشهرة"، "وفاقد الجاه بالكلية ولو كان صاحب مال، فلا يكون يساره إلا بمقدار ماله وعلى نسب سعيه، وهؤلاء هم أكثر التجار".

إن ابن خلدون يبرز أهمية "الدولة" "فهي كانت وما تزال" صورة المجتمع" بمعنى المقوم الأساسي لوجوده، ووحدته، والمسؤولة عن ازدهاره، أو ذبوله... وهي المهيمنة على الاقتصاد المتصرفة في الأموال والمتاع... وهي المشرفة على التعليم الموجهة للفكر، المراقبة للتفكير، هذا بالإضافة إلى مهامها الدينية التي رسمتها لها الشريعة الإسلامية كإقامة الحدود وحماية الثغور"[2].

فهذا التداخل بين السياسي والاقتصادي، قُرأت معظم نصوص ابن خلدون قراءة مادية بحتة[3]، "فالجاه متوزع في الناس ومترتب فيهم طبقة بعد طبقة، ينتهي في العلو إلى الملوك الذين ليس فوقهم يد عالية، وفي الأسفل إلى من لا يملك ضرا ولا نفعا من أبناء جنسه، وبين ذلك طبقات متعددة، بها ينتظم معاشهم وتسير مصالحهم ويتم بقاؤهم"، ثم إن كل طبقة من طباق أهل العمران من مدينة أو إقليم لها قدرة على من دونها من الطباق، وكل واحد من الطبقة السفلى يستمد الجاه من

1- ابن خلدون، المصدر السابق، ص506، 694.

2- محمد عابد الجابري، التراث والحداثة دراسات ومناقشات، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1991، ص220.

3- ناصيف نصار: الفكر الواقعي عند ابن خلدون تفسير تحليلي وجدلي لفكر ابن خلدون في بنيته ومعناه، ط3، دار الطليعة، بيروت، ص1994م؛ محمود إسماعيل، فكرة التاريخ بين الإسلام والماركسية، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1988م، ص24-29.

أهل الطبقة التي فوقه ويزداد كسبه تصرفا في من تحت يده على قدر ما يستفيد منه، فإن كان الجاه متسعا كان الكسب الناشئ عنه كذلك وإن كان ضيقا قليلا فمثله"[1].

إن هذه القراءة الخلدونية للمجتمع وإن ركزت على المال والكسب فقد قرنته بالجاه والسلطة والعلم، وما يُعزر هذا هو مقابلته جاه العلم بجاه السلطة "أنا نجد الكثير من الفقهاء وأهل الدين والعبادة، إذا اشتهروا حسن الظن بهم، واعتقد الجمهور معاملة الله في إرفادهم، فأخلص الناس في إعانتهم على أحوال دنياهم، والاعتماد في مصالحهم أسرعت إليهم الثروة وأصبحوا مياسير من غير مال مقتنى، إلا ما يحصل لهم من قسم الأعمال التي وقعت المعونة بها من الناس لهم، رأينا ذلك أعدادا في الأمصار والمدن وفي البدو، يسعى لهم الناس في الفَلَحِ والتُجَرِ وكل قاعد بمنزله لا يبرح من مكانه، ينمو ماله ويعظم كسبه، ويتأثل الغنى من غير سعي ويعجب من لا يفطن لهذا السرّ في حال ثروته وأسباب غناه ويساره"[2].

ثالثا- الهرمية التراتبية من خلال الفكر الفلسفي الإسلامي:

يبدو أن مفهوم الطبقة قد أثار سلسلة من النقاشات لدى الفلاسفة والعلماء والمتصوفة، إلا أن هذه الدراسة ستحاول قراءة ثنائية الخاصة والعامة من خلال أربع فلسفات؛ أما الأولى فهي فلسفة المعلم الثاني أبو نصر الفارابي والثانية فلسفة إخوان الصفا القريبة إلى التصوف منها إلى الفلسفة، الثالثة فلسفة الإمام أبو حامد الغزالي ثم الرابعة فلسفة ابن رشد.

1- ابن خلدون، المصدر السابق، ص694، 696.

2- محمود إسماعيل، سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، ج3 ص121.

1- الخاصة والعامة عند الفارابي -بين المدينة الفاضلة والمدينة الجاهلة-:

ففي كتاب الحروف يضع الفارابي[1] "الخواص على الإطلاق هم الفلاسفة الذين هم فلاسفة بإطلاق" وسائر من يعدّ من الخواص إنما يعد منهم، لأن فيهم شبها من الفلاسفة، ثم الجدليون والسوفسطائيون ثم واضعو النواميس ثم المتكلمون والفقهاء، والعوام والجمهور"، إن معيار التفاضل عند الفارابي هو قدراتهم العقلية، أولا مرتبة الفلاسفة ثم تليها من يشتغل بالعلوم الدينية -علماء الدين- وأخيرا العامة والجمهور التي لا تحتاج في حياتها العملية إلى استخدام قواها العقلية العليا من تفكير أو تخيل أو تعقل والتي تقتصر على ما حفظ وما رسم لها.

إن الفارابي ينتقد المجتمع الذي يعيش فيه وعبر عنه "بالمدن الجاهلة والضالة" القائمة على الغلبة والعصبية القبلية أو الدينية أو المذهبية "...فالإنسان يكون ذا حسب عندهم -المدن الجاهلة- وهو يرجع إلى أحد الأشياء وذلك أن يكون آباؤه وأجداده إما موسرين وإما أن تكون اللذة وأسبابها واتتهم كثيرا، وإما أن يكونوا غلبوا من أشياء كثيرة، فإن كان كذلك فينبغي أن يكون له من الحسب أكثر مما لغيره، إن كانت الرئاسة عندهم بالحسب فقط وكذلك إن كانت الكرامة عندهم باليسار فقط، ثم يتفاضل الناس ويتربعون على مقدار اليسار والحسب ومن لم يكن له يسار أو حسب لم يدخل في شيء من الرئاسات والكرامات"[2].

يمكن استلهام معايير التقسيم الطبقي من خلال المدن الجاهلة التي يعيش فيها الفارابي والتي لا تختلف في مبناها عن التقسيمات التي وردت في الأدبيات العباسية ولم تخرج من آليات الحسب والمال والسلطة والجاه، ويحاول الفارابي إيجاد تصور آخر

1- تحقيق مهدي محسن دار المشرق، بيروت، 1969م، ص133، 134.

2- الفارابي، كتاب السياسة المدنية الملقب بمبادئ الموجودات، تحقيق نجار فوزي، ط1، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1964م، ص91.

للمجتمع المتمدن الذي يربط الناس بروابط فكرية ودينية ذلك أن "مراتب أهل المدينة في الرئاسة والخدمة تتفاضل بحسب فِطَرِ أهلها وبحسب الآداب التي تأدبوا بها، والرئيس الأول هو المخول لترتيب الطوائف وكل إنسان من كل طائفة في المرتبة التي يستحقها واضعا طبقتين أساسيتين وهما طبقة الخدمة وطبقة الرئاسة دون أن يكون هناك مانع لوجود بعض المراتب تقترب أو تبتعد كثيرا أو قليلا عن الطبقتين الأساسيتين، فأساس التصنيف هو القدرات العقلية وتدرّج المعارف و"الهرمية" هنا ليست مبنية على أساس توزيع الثروات أو امتلاك وسائل الإنتاج الأساسية بل على أساس الملكات التي يحصل بها وهي الصناعات والرياسات، والمعنى الطبقي أو التراكيبي بعيد كل البعد عن المفهوم السوسيولوجي المعاصر[1].

2- الخاصة والعامة عند إخوان الصفا -بين الباطن والظاهر-:

إن طبقات المجتمع عند إخوان الصفا غير واضحة أو غير محددة تحديدا دقيقا بسبب اختلاف المعايير التي صنفوا على أساسها هذه الطبقات من جهة، وإلى صعوبة ضبطها في الرسائل لأنها متفرقة في أماكن عديدة من جهة ثانية، وإلى اختلاف عدد الطبقات من مكان على آخر في الرسائل، واعتبار شرائح الطبقة الواحدة طبقات مستقلة من جهة ثالثة.

بناء على هذه الصعوبات تم عرض النصوص كما وردت وتوضيح مقدماتها ومتونها وخلاصاتها، ثم مقابلة هذه النصوص فيما بينها عن طريق الجدول التالي ليتضح الاختلاف فيما بينها من خلال اختلاف الأسس التي قسموا على أساسها الطبقات، فمن المعيار الديني إلى الدنيوي ثم الديني والدنيوي معا إلى المادي، ففهم الحالات المختلفة التي صنفت وطبقت الناس من خلال أساسها نسلم من التضارب

1- الفارابي، المصدر نفسه، ص83؛ عبد السلام بن عبد العالي، الفلسفة السياسية عند الفارابي، ط3، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، د ت، ص78.

والتناقض الذي قد يلمسه الدارس في تعريفه للطبقات دون أن يضع هذه المعايير في الاعتبار.

ثم إن الذي يجمع بين هذه الرسائل نسق عام، فلا يمكن أخذ النص مبتورا من سياقه والمقصود بالسياق هنا الفصل الذي جاء فيه النص والذي كان قبله والفصل الذي يأتي بعده مع عنوان الرسالة ستكون قراءة النصوص إذن بفصولها وكليتها. والنظر إلى الكلية لا يكون إلا في إطار نسق متماسك تنبني وتتكون وتترتب الأجزاء في هيكله ترتيبا فعالا، فلإخوان الصفا وضعا فكريا ودينيا وسياسيا شائعا ليس من السهل أن نسلّم بأننا قد وصلنا إلى الفهم الدقيق لأفكارهم.

فصل في ترتب الأخلاق على بعضها وكونها فضيلة أو رذيلة أهل الدنيا	**فصل في الحرص والزهد ودرجات الناس أهل الدين**	**فصل في باين رجحان العقول للعقلاء أهل الدنيا والدين**	**فصل في مراتب الصناعات أهل الصنائع**
- **المقدمة**: واعلم يا أخي أيدك الله وإيانا بروح منه، بأن الناس أصناف وطبقات في متصرفاتهم في أمور الدنيا لا يحصي عددها إلا الله.. ولكن يجمعهم هذه السبعة أقسام:	- **المقدمة**:... أسّ كل خير وأصل كل فضيلة الزهد في الدنيا، وقلة الرغبة في شهواتها... إن الخلق كلهم عبيد الله وأهل طاعته، ولكن منهم خاص وعام، وما بينهما طبقات متفاوتة الدرجات	- **المقدمة**: وقد تبين مما ذكرنا طرق من علل تفاوت العقلاء في درجات عقولهم... فنقول أن ذلك يتبين فيهم ويعرف بحسب طبقاتهم في أمور الدنيا ومراتبهم في أمر الدين وهي كثيرة تجمعهم تسعة أقسام:	- **المقدمة**: واعلم يا أخي أن الناس كلهم صناع وتجار أغنياء وفقراء.
- **المتن**: 1- أرباب الصنائع	- **المتن**: 1- أول الخواص هم	- **المتن**: 1- أهل الدين	- **المتن**: 1- الصناع هم الذين

والحرف والأعمال. 2- أرباب التجارات والمعاملات والأموال. 3- أرباب البنايات والعمارات والأملاك. 4- الملوك والسلاطين والأجناد وأرباب السياسات. 5- المتصرفون والخدامون والمتعيشون يوما بيوم. 6- الزمنى والعطل وأهل البطالة والفراغ 7- أهل العلم والدين والمستخدمون في الناموس.	العقلاء الذين توجه نحوهم الخطاب بالأمر والنهي والوعد والوعيد والمدح والذم. 2- رفع قدر المؤمنين على سائر العقلاء، وهم المقرون والقابلون أوامره ونواهيه المنقادون لطاعته. 3- ثم رفع من المؤمنين المقربين المخلصين وهم العلماء والفقهاء الذين اجتهدوا في تعلم أوامر الناموس ونواهيه. 4- ثم رفع من جهة العلماء طائفة، وهم التائبون العابدون والصالحون الورعون المتقون. 5- رفع من هؤلاء طائفة وهم الزاهدون في الدنيا والعارفون عيوبها، الراغبون في	والشرائع والنبوات وأصحاب النواميس ومن دونهم من الموسومين بحفظ أحكامها... 2- أهل العلم والحكماء والأدباء، وأصحاب الرياضات. 3- الملوك والسلاطين والأمراء والرؤساء وأرباب السياسات. 4- المتعلقون بخدمتهم من الجنود والأعوان والكتاب والعمال والخزان والوكلاء ومن شاكلهم. 5- البُنَّاء والزارعون والأكرة والرعاة للشاة وساسة الدواب. 6- الصناع وأصحاب الحرف والمصلحون للأمتعة. 7- التجار والباعة المسافرون والجلابون. 8- المتعيشون الذين يعيشون في خدمة	يعملون بأبدانهم وأدواتهم مصنوعاتهم الصور والنقوش والأصباغ والأشكال وغرضهم طلب العوض عن مصنوعاتهم لصلاح معيشة الحياة الدنيا. 2- التجار هم الذين يتبايعون بالأخذ والإعطاء وغرضهم طلب الزيادة فيما يأخذونه على ما يعطون. 3- الأغنياء هم الذين يملكون هذه الأجسام المصنوعة الطبيعية والصناعية وغرضهم في جمعها مخافة الفقر. 4- الفقراء هم المحتاجون غليها وطلبهم الغنى

	الآخرة". ج1/ 356-357.	غيرهم. 9- الضعفاء ومن شاكلهم من الفقراء والمساكين	
- **الخلاصة**: كل طائفة من هذه السبعة تنقسم على أصناف كثيرة... ولكن نريد أن نذكر ما يُحتاج إليه من الأخلاق أهل الدين المتمسكون بأحكام الناموس" ج1 / 320- 321 "... إذا نظر العقلة وتفكر برويته في أحوال الناس، وميز بين طبقاتهم، واعتبر تصاريف أمورهم في دنياهم، عرف وتبين له بأن منهم خاصا وعاما وملوكا وسوقة"ج1/ 335	- **الخلاصة**: ثم يأتي ما بين الخاص والعام الذين يعملون بظواهر الشريعة، "غير عارفين بأسرارنا"... ورزقوا من الفهم والتمييز قدرا فخرجوا من جملة العامة ولم يحصلوا في جملة الخاصة" العامة النساء والصبيان واللاحقين بهم في العقل من الرجال "من قصر فهمهم ومعرفتهم" "ضعفاء العقول".	- **الخلاصة**: أن كل إنسان من هذه الطبقات لا يخلو من أن يكون رئيسا سائسا لغيره أو يكون مرؤوسا مسوسا فيها بغيره، ورجحان عقل كل رئيس سائس يتبين فيها. ج1/ 428.	- **الخلاصة**: واعلم أن الغرض في كون الناس أكثرهم فقراء، وخوف الأغنياء من الحث لهم على الاجتهاد في اتخاذ البضائع والثبوت فيها... تتمم النفس بالمعارف الحقيقة والأخلاق الجميلة. ج1/ 385- 386.

لقد ورد في الرسالة التاسعة من القسم الرياضي في ثلاث فصول متتالية ومكملة لبعضها البعض، ولا يمكن أن نفهم كل فصل على حدة، فأول الثلاث هو فصل في ترتب الأخلاق بعضها على بعض وكونها فضيلة أو رذيلة، وهو تقسيم

سباعي للمجتمع بدأه بأرباب الصنائع والحرف وانتهوا فيه إلى أهل العلم والدين والمستخدمين في الناموس، وهذا النص كان أكثر النصوص تداولا بين الباحثين، ودلل به لإثبات أن الثروة هي المعيار للتقسيم الطبقي عند إخوان الصفا. فقد قرأ النص كالتالي: الناس أصناف وطبقات منهم أرباب الصناع والحرف والعمال وإلى آخر النص، من خلال هذا الانتقاء والقص أشار المؤرخ محمود إسماعيل عبد الرزاق بتصنيف إخوان الصفا الاقتصادي وكيف برز معيار الثروة كأساس لتحديد الفوارق بين الطبقات بوضوح شديد، وإن عابه التسبيق بالطبقة الوسطى ثم التثنية بالطبقة العليا كذلك حين جعلوا أهل العلم والدين طبقة بعينها بينما كانوا ضمن شرائح الطبقة العليا والوسطى[1].

الملاحظة نفسها نجدها عند تلميذه إبراهيم القادري بوتشيش، آخذا النص بالصيغة السابقة ويجزم بأن "اعتماد هذا التصنيف على مقياس اقتصادي ما أكسبه - على الرغم من شموليته- الوضوح والأهمية التي نفتقدها عند غيرهم"[2].

لقد حاولت هذه القراءات أن تجزأ النص عن سياقه والهدف الذي من أجله وضعه إخوان الصفا، وهو كما نلاحظ ونقرأه بعنوان الفصل ومقدمته ومتنه وخلاصته، أن التقسيم في هذا النص هو تقسيم أخلاقي بحث، فأصناف وطبقات الناس في متصرفاتهم في أمور الدنيا، ولم يكن الترتيب على أساس التفاضل، ولا نعتقد أن جماعة مثل إخوان الصفا والتي تنتمي إلى أهل العلم والدين أن ترتب هؤلاء في الطبقة الأخيرة -السابعة- إلا إذا كان الترتيب لا يعني التفاضل في الدنيا لسببين:

1- سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، ج3 ص122، 123.

2- أحمد الطاهري: عامة قرطبة في عصر الخلافة دراسة في التاريخ الاجتماعي الأندلسي، منشورات عكاظ، د م ن، د ت، ص160، 161.

- أما الأول فهم بدأوا بأصحاب الدنيا، الراغبين فيها، والحريصين على طلب شهواتها ولذاتها، وعليه بدأوا بأصحاب وأرباب الصنائع وأهل المعاش والكسب، وأنهوه بالعلماء لأنهم أقل الناس حرصا في طلب الدنيا.

- والثاني أن موقع العلماء في الطبقة السابعة والأخيرة توضحها خلاصة الفصل "لكن نريد أن نذكر منها ما يحتاج إليه من الأخلاق والسجايا والخصال والأعمال والآداب أهل الدين المتمسكون بأحكام الناموس الحافظون أركانه الذين يزجى بهم النجاة بها والفوز باستعمالها، لكي تربط بالفصل الرابع عشر في مراتب الناس في الأخلاق حسب الأعمال، فهم أخذوا من الطبقة السابعة أهل العلم والدين وصنفوا من ثمانية أصناف أخرى وكلها لحفظ أركان الناموس، ثم نجد في الرسالة نفسها بيان الأخلاق وأسباب اختلافها وأنواع عللها. درجات الناس في الحرص والزهد والدين وهي الصورة النقيضة للفصل الثالث عشر أول الفصول الثلاث. وهو ترتب الأخلاق على بعضها وكونها فضيلة أو رذيلة.

فهم في التصنيف الأول انتهوا إلى العلماء وصنفوهم بدورهم إلى ثمانية أصناف، ثم ركزوا في التصنيف الثالث على الخواص وهم العقلاء بدأ الاختصاص إلى أن يصلوا إلى الزاهدين في الدنيا العارفين عيوبها الراغبين في الآخرة.

فهؤلاء الخواص هم الذين "يفهمون المعاني الدقيقة واللطيفة من كلام الأنبياء، والذي يصلح من علم الدين لهذه الطبقة هو النظر في أسرار الدين وبواطن الأمور الخفية وأسرارها المكنونة... والبحث عن مرامي أصحاب النواميس في رموزهم وإشاراتهم اللطيفة"[1] ومعنى ذلك أن الخواص هم الذين لديهم علم الباطن والذين لهم حق التأويل وهذا لب التفاضل عند إخوان الصفا، إن التقسيم في هذا النص كان على أساس أخلاقي وميز بين أمر الدنيا والدين، فإن قُرِأ بهذه الكلية والشمولية نصل

1- إخوان الصفاء وخلان الوفاء، المصدر السابق،1 ص328.

إلى هذه النتيجة، لكن إذا جُزِأ وقُرِأ بطريقة التصيد والقص سوف يطوع لأي جهة يراد لها.

ويميل إخوان الصفا في الرسالة الثامنة من القسم الرياضي وبالضبط في الفصل الخاص حول مراتب الصناعات إلى القول باتخاذ الصنائع، ويعتبرون المعيار فيها الرياسات والاجتهاد، وعللوا ذلك بامتناع النفس الواحدة من الارتياض بجميع أصناف العلوم وبوجود عوائق مختلفة، وضرورة اتخاذ الصنائع "كون الناس أكثرهم فقراء، وخوف الأغنياء من الفقر هو الحث لهم على الاجتهاد في ذلك والغرض أن تتمم النفس بالمعارف الحقيقية والأخلاق الجميلة والآراء الصحيحة والأعمال الزكية"[1].

والاهتمام بأهل الصنائع والحرف من قبل إخوان الصفا يعطي دلالة واضحة للفكر الاقتصادي والاجتماعي، هذه الشريحة التي نجدها تتكرر في معظم النصوص، وقد تصدرت التقسيم الرباعي في النص الأول، وخصصوا رسالة كاملة من رسائلهم حول "الصنائع العملية والغرض منها" وقراءة هذا النص بمعزل عن باقي الرسائل سيكون تقسيم المجتمع على أساس مادي -فالناس صناع وتجار وأغنياء وفقراء- كما ذهب إلى ذلك بعض الباحثين[2]، لكن نعود دائما إلى موقع النص ضمن هذه الرسائل ومقارنته بما جاء حول طبقات المجتمع في مواضع أخرى.

وعليه يخلص في الأخير إخوان الصفاء[3] إلى حصر طبقات المجتمع إجرائيا إلى أربع طبقات مستعملين معظم النصوص والتركيز على النص الثالث في الجدول وهو

1- المصدر نفسه، ج1 ص286.

2- صباح إبراهيم سعيد الشيخلي، الأصناف في العصر العباسي نشأتها وتطورها، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1976، ص56؛ عبد العزيز الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، ط2، دار المشرق، بيروت، 1974، ص86؛ محمد فريد حجاب، الفلسفة السياسية عند إخوان الصفا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1982، ص285.

3- المصدر السابق، ج1 ص429.

طبقات الناس في أمور الدنيا ومراتبهم في أمر الدين لأنه أقرب النصوص شمولية واتساعا ووضوحا، فهم حصروا الناس في تسعة أقسام لكن سنقوم بحصرهم إجرائيا في أربع لأن معظم شرائح داخل طبقة واحدة.

– **الطبقة الأولى:** أهل الدين والشرائع وأهل العلم والحكماء والأدباء وأصحاب الرياضات وهؤلاء هم خاصة الخاصة وقد جعل الإخوان هذه الطبقة أرقى الطبقات لأنها مرتبطة بالإمامة وعدم إمكان أي إنسان بلوغ مرتبة، الإمامة لما يتمتع به الأئمة من آل البيت من استعدادات طبيعية والهامات إلهية خصوا بها دون غيرهم وهو علم الباطن.

– **الطبقة الثانية:** طبقة الحكم من الملوك والسلاطين والأمراء والرؤساء وأرباب السياسات وهم الخاصة من الوزراء والكتاب والعمال وأصحاب الدواوين والحجاب والقواد وخدم الملوك وأعوانهم من الجنود أتباع الخاصة.

– **الطبقة الثالثة:** التجار وأرباب النعم وكبار الصناع والمسافرون، ويطلق عليهم "أوساط الناس" علاوة على الأغنياء والأشراف.

– **الطبقة الرابعة:** الزُرّاع والبُنّاء والأكرة والصناع وأصحاب المهن وهم العامة من الرعاة والباعة والمتعيشون في خدمة غيرهم الضعفاء ومن شاكلهم من الفقراء وأهل المساكين ولقد خصصوا فضلا في بيان فضل الفقراء والمساكين وأهل البلوي.

فإخوان الصفا يميزون بين البشر من خلال ثلاث مراتب رئيسية هي مرتبة الخواص ومرتبة العوام ومرتبة الأوساط بين الخواص والعوام، وهو يعكس أيضا التنظيم السياسي الذي بني على أساس هرمي يكون فيه الإمام على رأس الطبقة العالية، وأن مرتبته هي مرتبة "النبوة والناموسية"، وهي لا تخرج عن مصطلحات الشيعة، وكلمة "الشيعة" ترادفها كلمة "الخاصة" وهو ما يقابل العامة وأخلاطها والغارقة في العماية

والضلال لأنها غير مؤهلة للوقوف على أسرار الجماعة وأسرار التنظيم[1]، إلا أن هذا لا يمنع من وجود مرشحين لعضوية الجماعة من بين أهل الأوساط والعامة، على اعتبار أن التنظيم يسعى إلى التوسع والانتشار بين القاعدة، وتبدأ الدعوة بين هؤلاء من خلال قيام الداعي بتعليمهم علوم الشريعة والدين على أن يتمكن منهم من يخرج من جهة الأوساط والعامة ويصبح في أدنى درجات الخواص وهي التي يسميها الإخوان "مرتبة العقلاء" ثم يتدرج في مراتب الدعوة من العقلاء إلى المؤمنين إلى العلماء والفقهاء على التائبين العابدين إلى مرتبة الزاهدين، وغاية المراتب البشرية في الشرف، الانتقال من الظاهر إلى الباطن ومن العامة إلى الخاصة.

3- الخاصة والعامة عند الشافعي والغزالي -بين الاجتهاد والتقليد-:

لقد سئل الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي (150-204هـ/767-820م) ما العلم؟ وما يجب على الناس في العلم؟ فأجاب العلم علمان "علم عامة لا يسع بالغا غير مغلوب على عقله جهله مثل الصلوات الخمس وأن لله على الناس صوم شهر رمضان، وحج البيت إذا استطاعوا، وزكاة في أموالهم... وما كان في معنى هذا مما كلف العباد أن يعقلوه ويعطلوه من أنفسهم وأموالهم... والوجه الثاني ما ينوب العباد من فروع الفرائض، وما يخص به من الأحكام وغيرها، مما ليس فيه نص كتاب ولا في أكثره نص سنة، وإن كانت في شيء منه سنة فإنما هي من أخبار الخاصة، لا أخبار العامة، وما كان منه يحتمل التأويل ويستدرك قياسا... ومن وجه ثالث هي درجة العلم ليس تبلغها العامة، ولم يكلفّها كل الخاصة، ومن احتمل بلوغها من

1- أنظر: جولد تسيهر، العقيدة والشريعة في الإسلام، ترجمة موسى محمد يوسف وآخرون، دار الرائد العربي، بيروت، د ت، ص204؛ بوبة مجاني: النظم الإدارية في بلاد المغرب خلال العصر الفاطمي، (296-362هـ/909-973م)، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه، مرقونة، جامعة قسنطينة، ص3.

الخاصة فلم يسعهم كلهم كافة أن يعطوها، وإذا قام بها من خاصتهم من فيه الكفاية لم يخرج غيره ممن تركها، والفضل فيها ممن قام بها على من عطلها"[1].

فالشافعي[2] حريص على أن يكون "الناس في العلم طبقات موقعهم من العلم بقدر درجاتهم في العلم به"، وحريص على التمييز في المعرفة بين صنف أول يجب على العامة ومن ثم فهو يلزم كل الناس، وصنف ثاني تلزم الخاصة بمعرفته ولا تكلف بها حتى الخاصة كلها.

فعلى العامة أن يسلموا لأمر المعرفة السامية -الخاصة- بكل ما يقولونه ويرونه لهم في أمور العقيدة ومسائل الشريعة، وليس لهم أن يطلبوا سوى الإفهام اللغوي والمعنى المراد، كما عليهم أن يلتزموا بأحكام القرآن الكريم، ولكن ليس لهم أن ينشغلوا بأدلته وطرق بيانها ويحظر عليهم الاشتغال بالكلام والنظر في موضوعات أصول الدين، لهذا نجد الإمام أبو حامد الغزالي (ت505هـ/1111م)، يلجم العوام عند علم الكلام، لأن عاقبته الشرك والكفر وربما كان أسلم له أن يخوض المعاصي البدنية من المعاصي الكلامية لأن الأولى عاقبتها الفسق والثانية الشرك والله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك[3].

ويكفي للعامي أن يطمئن أن هناك خاصة عالمة تسير على ما سار عليه السلف من الصحابة والتابعين، وهذا الاطمئنان تجب فيه سبعة أمور "التقديس ثم التصديق ثم الاعتراف بالعجز، ثم السكوت ثم الإمساك، ثم الكف، ثم التسليم لأهل المعرفة وهي سبعة وظائف اعتقد كافة السلف وجوبها على كل العوام"[4]. وإنما انطوى

1- أبو عبد الله بن محمد بن إدريس الشافعي (ت204هـ)، الرسالة، تحقيق الشيخ خالد السبع العلمي وزهير شفيق، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت، 1999، ص245، 246.

2- المصدر نفسه، ص46.

3- الغزالي، رسالة إلجام العوام عن علم الكلام ضمن رسائل الغزالي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1994م، ص57-60.

4- المصدر نفسه، ص42، 46، 47، 61، 62.

عنه لعجزه وقصور معرفته فلا ينبغي أن يقيس بنفسه غيره فلا تقاس الملائكة بالحدادين، والناس أشتات متفاوتين كمعادن الذهب والفضة والجواهر... فكذلك القلوب معادن لسائر جواهر المعارف فبعضها معدن النبوة والولاية والعلم ومعرفة الله، وبعضها معدن للشهوات البهيمية والأخلاق الشيطانية. ومن ثم وجب على الخاصة أن تلجم العامة كما يلجم الفرس فلا يرضى له العنان إلا بمقدار[1].

والغزالي من موقعه كفيلسوف أصولي متصوف قسم الناس إلى ثلاثة أصناف خواص وعوام وأهل جدل طائفة تتولد بين الخاصة والعامة؛ أما الخواص وهم قوم اجتمعت فيهم ثلاث خصال، الأولى القريحة النافذة والفطنة القوية، وهي عطية فطرية وغريزة جلية لا يمكن كسبها، أما الثانية خلو باطنهم من تقليد وتعصب لمذهب موروث مسموع فإن المقلد لا يصغى والبليد وإن أصغى لا يفهم، أما الثالثة أن يعتقد أن من أهل البصرة بالميزان ومن لم يؤمن بأنك من أهل الحساب لا يمكنه أن يتعلم منك. وأما البله وهم جميع العوام، وهؤلاء هم الذين ليس لهم فطنة لفهم الحقائق فادعوا هؤلاء بالموعظة كما ادعوا أهل البصيرة بالحكمة وادعوا أهل الشغب بالمجادلة[2] مستوحيا قوله عز وجل: (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)[3]. وأما أهل الجدل فهم طائفة فيهم كياسة ترقوا بها عن العوام، ولكن كياستهم ناقصة، إذ كانت الفطرة كاملة، ولكن في باطنهم خبث وعناد، وتعصب وتقليد، فذلك يمنعهم عن إدراك الحق ولهذا فهؤلاء يجادلهم الغزالي وإن اشمأزوا منها أهل الحكمة[4].

1- سعيد بن سعيد العلوي: الخطاب الأشعري مساهمة في دراسة العقل العربي الإسلامي، ط1، دار المنتخب العربي الدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1992م، ص43.

2- الغزالي، رسالة إلجام العوام عن علم الكلام ضمن رسائل الغزالي، ص96.

3- سورة النحل، الآية 125.

4- الغزالي، المصدر السابق، ص97.

من خلال هذا التصنيف -خواص- عوام- أهل جدل- نجد أن الغزالي يقدم للناس ألوان مختلفة من المعرفة **الحكمة- الموعظة- المجادلة**- وأن هناك طائفة من الناس لا ينبغي أن يكاشفوا بالحقيقة، لعدم طاقتهم إياها، بهذا فهو يقف منهم الموقف الذي يرى أن الشرع أمر به، وهو مخاطبة الناس على قدر عقولهم، مستشهدا بقوله عليه الصلاة والسلام: "خاطبوا الناس على قدر عقولهم، تريدون أن يكذب الله ورسوله"[1].

وذكر الغزالي مسألة مهمة وهو دخول العوام في الإجماع، إذ بين أن الشريعة تنقسم إلى ما يشترك في دركه العوام والخواص كالصلوات الخمس ووجوب الصوم والزكاة والحج، فهذا مجمع عليه، والعوام وافقوا الخواص في الإجماع وإلى ما يختص بدركه الخواص، كتفصيل أحكام الصلاة والبيع والإيجار مما أجمع عليه الخواص، فالعوام متفقون على أن الحق فيه من أجمع عليه أهل الحل والعقد فلا يضمرون فيه خلافا وأطلق عليه "إجماع الأمة"[2] وحدد الغزالي في فائدة الإجماع على غير المعلوم من الدين بالضرورة هو انتقال الحكم من مرتبة الظن إلى مرتبة القطع.

التركيز على الاجتهاد وآلة الاستنباط هي كما أشرنا سابقا من موقعه كأصولي مجتهد، لأن رُبَ متكلم ونحوي ومفسر ومحدث ناقص الآلة في درك الأحكام، ويدخل معهم الفقهاء أيضا، لأن الأصولي العارف بمدارك الأحكام وكيفية تلقيها من المفهوم والمنظوم وصيغة الأمر والنهي والعموم. وكيفية تفهيم النص والتعليل أكثر من الفقيه

1- القسم الأول من الحديث "خاطبوا الناس على قدر عقولهم" ضعيف، من حديث ابن عباس رضي الله عنه، السيوطي (أبو الفصل عبد الرحمن بن أبي بَكر، ت911هـ/1505م): جامع الأحاديث، تحقيق عباس أحمد صقر وأحمد عبد الجواد، دار الفكر، بيروت، 1994م، ج2 ص175؛ القسم الثاني من الحديث "تريدون أن يكذب الله ورسوله" صحيح، من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه، البخاري (أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، ت256هـ/870م): الجامع الصحيح، تحقيق مصطفى ديب، ط3، دار ابن كثير، بيروت، 1987م، ج1 ص59.

2- الغزالي: كتاب المستصفى من علم الأصول، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، د ت، ص143.

الحافظ للفروع غير القادر على إدراك الأحكام، أما النحوي والمتكلم فلا يعتد لهما لأنها من العوام في حق العلم، إلا أن يقع في مسألة تبني على النحو أو علم الكلام[1].

4- الخاصة والعامة عند ابن رشد -الحكمة والشريعة-:

يستخدم ابن رشد اصطلاح "الجمهور" في مقابل اصطلاح "الخواص" والجمهور (العوام) هم أيضا الخطابيون الذين ينبغي أن يظلوا بمنأى عن التأويل[2]، إذ أن التصريح لهم بالتأويل أو اطلاعهم عليه مفسد لهم صاد عن الشرع[3].

والشرع وعى تفاوت طباع الناس في التصديق فدعاهم من طرق ثلاثة: خطابية، جدلية، برهانية، وعلى هذا الأساس صنف ابن رشد الناس في الشريعة إلى ثلاثة أصناف: صنف ليس هو من أهل التأويل وهم الخطابيون وهم يمثلون الجمهور الغالب وصنف هو من أهل التأويل وهم الجدليون بالطبع فقط أو بالطبع والعادة وصنف هم من أهل التأويل اليقيني وهؤلاء هم البرهانيون بالطبع والصناعة ويعني بها صناعة الحكمة وهذا التأويل لا ينبغي أن يصرح به لأهل الجدل فضلا عن الجمهور[4].

1- وهبة الزحيلي، أصول الفقه الإسلامي، ط2، دار الفكر، دمشق، 1996م، ج1 ص499؛ عبد المجيد الصغير، الفكر الأصولي وإشكالية السلطة في الإسلام، ط1، دار المنتخب العربي للدراسات، بيروت، 1984م، ص187؛ حمادي ذويب، مواقف العلماء المسلمين من العامة في ق 5هـ، ضمن الندوة الثانية -المسلم في التاريخ- الدار البيضاء، 1999، ص120.

2- ابن رشد، المصدر السابق، ص60.

3- المصدر نفسه، ص56.

4- ابن رشد، المصدر السابق، ص33، 47، 56، 58؛ وأنظر: طه عبد الرحمن: تجديد المنهج في تقويم التراث، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1994م، ص154؛ محمد عابد الجابري، التراث والحداثة دراسات ومناقشات، ص208؛ محمد عابد الجابري: قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي، ص246، 248؛ محمد عابد الجابري: بنية العقل العربي، ط2، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1991م، ص594؛ علي أومليل: في التراث والتجاوز، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1990م، ص25، 26، 27؛ عبد الرحمن التليلي: ابن رشد الفيلسوف العالم، ط1، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1998م، ص16، 99، 155، 161.

إن هذا التقسيم الثنائي - الثلاثي للمستويات الذهنية عند ابن رشد من مسلمة واضحة وهو أن الشرع ظاهر وباطن[1]، واختلاف درجات الناس في التصديق اقتضى أن يكون هناك طبقتين من الناس، طبقة محدودة من الناس هم أهل الباطن البرهانيون أصحاب التأويل اليقيني ويقصد بهم الفلاسفة الراسخون في العلم[2] الذين ذكرهم القرآن الكريم بأنهم القادرون على الفهم والتأويل[3]، وبالتالي فهم خاصة.

وطبقة عريضة من الناس وهم أهل الظاهر الجدليون والخطابيون الذين لا يقع التصديق لهم إلا من قبل الحس والتخيل نظرا لارتباط قدراتهم الإدراكية بالمحسوسات[4] وبالتالي فهم عامة (الجمهور).

وإن كان التسليم بالظاهر مقصورا على الجمهور، فلم يسلم منه أهل الجدل وهم الفقهاء المتكلمون[5] الذين ليسوا بفلاسفة، وهنا يقابل ابن رشد بين القياس الفقهي الشرعي (الظني) = (الفقيه) وبين القياس العقلي (اليقيني) = (العارف)، وأن إدراك الحقيقة والوصول إليها لا يتم إلا عند هذا الأخير لأنه برهاني يجمع بين الشرع والعقل (المعقول والمنقول). لهذا كان موقع أهل الجدل في الهرم العلمي هو الوسط بين مرتبة الخواص (أهل البرهان) ومرتبة العوام والجمهور (أهل الخطاب)، ولأنهم لا يصلون إلى الحقيقة وقياسهم ظنيا عدوا من أهل الظاهر وبالتالي ضمن الجمهور التي أصبحت تشمل مرتبتين (جدلي وخطابي).

1- ابن رشد، المصدر نفسه، ص47.

2- المصدر نفسه، ص39؛

3- قال تعالى: (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ) سورة آل عمران، الآية: 7.

4- ابن رشد، المصدر نفسه، ص48، 49.

5- المصدر نفسه، ص32، 55، 67، 68.

فالصورة الطبيعية أدت لوجود حقيقتين حقيقة العامة وحقيقة الخاصة أي حقيقة دينية شرعية وحقيقة فلسفية عقلية، فالحقيقة الدينية موجهة إلى كافة الناس لأن هدفها الأساسي هو تقويم السلوك البشري، وبحكم الطابع العملي التي لا تحتمل التأجيل حتى يتعلم العامة البرهان لأنه من الطبيعي أن يوجد نوعان من تمثل الحقيقة تمثل بالحس والخيال (الظاهر) وتمثل بالعقل (الباطن)، هذا الأخير الذي ينطلق من الحس إلى النظر في الموجودات بواسطة العقل والفهم والتأويل وبالتالي يجمع بين الحس والعقل وبين الدين والفلسفة وبين الظاهر والباطن، لتصبح حقيقة واحدة وإدراك العلماء يختلف عن إدراك العامة لها والاختلاف في الإدراك يعود إلى المستوى العلمي المعرفي لا غير.

إن الاختلاف الذي وقفنا عليه بين هؤلاء العلماء فلاسفة ومتصوفة وفقهاء أصوليين، ناتج عن رؤية هؤلاء للناس من خلال مواقعهم التي تواجدوا بها.

فالفارابي من موقعه كفيلسوف لا يرى التمييز بين الخاصة والعامة إلا من خلال قدراتها العقلية وركز على الفلسفة، والصوفية لا يميزون بينهما إلا من خلال القدرات الروحية الأخلاقية (الإمام عند الشيعة والشيخ والولي عند السنة)، والغزالي من موقعه كفقيه أصولي لا يرى التميز إلا من خلال القدرة على الاجتهاد (الشريعة)، وابن رشد من موقعه كفقيه أصولي فيلسوف وإن انتصر للثانية (الفلسفة/الحكمة) فلم يلغ الأولى (الشريعة) بل جمع بينهما لأن الوصول إلى الحقيقة يجب أن تبدأ بالحس وتنتهي بالعقل.

فالهرم إذن هرم علمي مغاير تماما عما وقفنا عليه سابقا، وهو الهرم الاجتماعي الذي تدخل فيه السلطة والثروة والعلم والمال والشرف والحسب كمعايير أساسية في تكوين الطبقة وفي التقسيم الثنائي بين الخاصة والعامة.

فالناس في النظام المعرفي مراتب ودرجات ومنازل بناء على استعداداتهم الذاتية والفطرية وبناء على التخصص في المعارف -علم الكلام- الاجتهاد -ملكة

الاستنباط- فيصبح الهرم الاجتماعي هرما علميا خاضع للترتيب المعرفي فهم بذلك خاصة وعامة، إن الاختلاف الذي وقفنا بين هؤلاء العلماء فلاسفة ومتصوفة وفقهاء أصوليين، ناتج عن رؤية هؤلاء للناس من خلال مواقعهم التي وجدوا فيها.

فالفارابي من موقفه كفيلسوف لا يرى التمييز بين الخاصة والعامة إلا من خلال قدراتها العقلية وركز على الفلسفة، والصوفية لا يميزون بينهما إلا من خلال القدرات الروحية الأخلاقية، (الإمام عند الشيعة والشيخ والولي عند السنة)، والغزالي من موقعه كفقيه أصولي لا يرى التمييز إلى من خلال القدرة على الاجتهاد، (الشريعة).

وابن رشد من موقعه كفقيه أصولي فيلسوف وإن انتصر للثانية (الفلسفة/ الحكمة) فلم يلغ الأولى (الشريعة) بل جمع بينهما لأن الوصول إلى الحقيقة يجب أن تبدأ بالحسن وتنتهي بالعقل.

فالهرم إذن هرم علمي مغاير تماما لمل وقفنا عليه سابقا، وهو الهرم الاجتماعي الذي ندخل فيه السلطة والثروة والعلم والمال والشرف والحسب كمعايير أساسية في تكوين الطبقة وفي التقسيم الثنائي بين (الخاصة والعامة).

فكل هذه الثنائيات الشائعة في أدبيات العصر الإسلامي الوسيط وإن تم الاستشهاد بأشهرها، تؤكد شيوع استعمالها وفق الأبعاد السياسية والاقتصادية والدينية والمعرفية، والتعامل معها بدون أي إسقاط معاصر وبدون أي استعارة مؤدلجة.